
يفغيني روداشيفسكي
مرحباً، أخي بِيْزو!
رسوم: ألكسندر غورنوف
رواية للفتيان
ترجمة: د. نوفل نيّوف

يفغيني روداشيفسكي




# مرحباً، أخي بِيْزو!

رواية للفتيان



رسوم: ألكسندر غورنوف

ترجمة: د. نوفل نيّوف

بيانات الفهرسة أثناء النشر

PZ10.731.R83 Mar 2020

Rudashevsky, Eugene

مرحباً، أخي بِيْزو : رواية للفتيان / تأليف يفغيني روداشيفسكي ؛ رسوم ألكسندر غورنوف ؛ ترجمة نوفل نيّوف. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2020.

١٧٥ ص. ؛ ٢١ سم.

ترجمة كتاب : Zdravstvuy, brat moy Bzou!

تدمك : 978-9948-٣٥-٧٣٢-٢

1- قصص الأطفال الروسية- مترجمات إلى العربية. 2- قصص الأطفال العربية- مترجمات من الروسية. أ- غورنوف، ألكسندر.

ب- نيّوف، نوفل. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي:

!Original title: Zdravstvuy, brat moy Bzou



Published with the permission of the KompasGuide Publishing House, Russia

www.kalima.ae



ص.ب: 94000 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، Info@kalima.ae هاتف: 579 5995 2 +971



# مرحباً، أخي بِيْزو!

# الفهرس


تقديم ٦

كتاب الوفاق ٧

الفصل الأول

الربيع ١١

الفصل الثاني

الصيف ٥١

الفصل الثالث

الخريف ١١١

الفصل الرابع

الشتاء ١٣٧

خاتمة المؤلف ١٦٩

# [In angello cum libello[1]

تعودُ هذه القصَّة إلى القرن الماضي، وتحدّثنا عن صداقةٍ حميمةٍ تجمع بين فتىً أبخازيٍ بسيطٍ و«حيوانٍ بحريٍ متوحّشٍ». وما يزيد من روعة هذه الصداقة هو أنّها محاطةٌ بأجواء الحياة اليومية بأشكالها البدائية والساذجة أحياناً في قريةٍ أبخازيةٍ يعتقدُ سكانها الفلاحون وصيّادو السمك بأن الدُلفين «سمكةٌ رماديةٌ غبيةٌ» ويصفونه باللصّ. وأنّ مَن يعقد صداقةً مع دلفين هو شخصٌ غريبُ الأطوار، على الأقل.

تعيش قرية لِدْزا حياتها الرَّتيبة منذ قرونٍ طويلةٍ. فالأبخازُ يُجلّون وصايا الأجداد، يكدحون في أرضهم، يذهبون إلى البحر لصيد السمك، يحزنون ويفرحون. وبدورها تعيشُ أسرابُ الدلافين في البحر منذ القِدم، تلعب وتصطاد فتذهل الناس تارةً، وتخيفهم تارةً أخرى.

عند الشاطئ، كان الفتى الأبخازيُ على موعد مع صديقه المستقبلي، في صباح يومٍ ربيعيٍ، ينبئُ بمعجزةٍ واعدةٍ. بريق هذه الصداقة، يُغطي مساحة السرد بأكملها، يكشف عن طباع الفلاحين، ويبعث الدفء في قلوبهم المرهفة. ولكنَّ هذه المعجزة لم يكن مقدراً لها أن تعيش طويلاً. كان عمر صداقتهما قصيراً، صيفٌ واحدٌ فقط، جمعتهما فيه الثقة والصداقة والتآخي... خطوةً إثرَ خطوةٍ، ويوماً بعد يومٍ، ولحظةً بعدَ لحظةٍ يمر صيفُ نضوج البطل سريعاً، يقترب من سن البلوغ، تصبح نظرته إلى أرضه الأم أكثر عمقاً، ويزداد تعلقاً بتفاصيل حياته اليومية البسيطة وأهله المحبين... ومع قدوم الخريف يحلُ الفراق، وينطلقُ الفتي لتلبية نداء الخدمة الوطنية.

ربما لا تنتظر القارئ لهذه القصة نهايةٌ سعيدةٌ ومتفائلةٌ. بل على العكس، سيجد نفسه أمام مأساوية الحرب العبثية. ومع ذلك تظلّ القصة كتاباً ملهماً عن الخير والسّلام. ما الذي يمكن أن يكون نقيضاً للظلام؟ لن تجد جواباً على هذا السؤال أفضل مما قاله فلاحٌ أبخازيّ في القصة: «همُّنا هو السّلام! أن نعيش ونفرح! أن نُنجب أطفالاً ونربيهم. أن نستقبل الضيوف ونكرمهم، هذا ما أُوصِينا به، وهذا ما سنفعله!».

انشغل يفغيني روداشيفسكي لعدّة سنواتٍ بدراسة الثدييات البحرية عن قرب، لذا هو لا يستقي معرفته عن حياة الدلافين من كلام الآخرين، وإنما من واقع دراسته. وقد فاز يفغيني روداشيفسكي بجائزة مسابقة «كنيغورو» لأدب الأطفال والناشئة لعام 2013 عن روايته «مرحباً، أخي بِيْزو!».

# كتاب الوفاق

- 13 فبراير 1980: افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الشتوية الثالثة عشرة في «لاك بلاسيد» (الولايات المتحدة الأمريكية).

- 25 أبريل 1980: تشغيل محطة بيلويارسك للطاقة النووية بواسطة مفاعل نووي يعمل بالنيوترينات السريعة.

- ٣ يوليو 1980: تشغيل محطة زِيا للطاقة الكهرومائية.

- ١٩ يوليو 1980: افتتاح دورة الألعاب الأولمبية الصيفية الثانية والعشرين في موسكو.

- ٢٥ يوليو 1980: وفاة المغني الروسي فلاديمير فيسوتسكي.

- 8 ديسمبر 1980: اغتيال المغني الإنجليزي جون لينين.

- 1980: اكتشف الفلكيون سبعةَ أقمارٍ تدور حول كوكب زُحل.

على النقيض، بدا وكأنَّ الزمن قد توقف في قرية لدزا . في عام 1980 كانت العائلات هناك تحرث الأراضي بالمجرفة والفأس. لا يقرؤون الجرائد، ولا يشاهدون التلفاز، ولا يناقشون الأخبار العالمية والدولية، ولكنّهم كانوا يناقشون الأخبار المحلية. ولا يكاد العالم الخارجي يؤثر على حياة القرية الأبخازية. لا يقتحم حياتها إلا على شكل القوة التي وطّنت الجورجيين في أراضي أبخازيا ذاتَ يومٍ، وكذلك على شكل القوة التي ترسلُ حافلةً عليها خطوطٌ خضراءُ لإحضار المجنّدين. وكلّ ما تبقى في لِدْزا لا يتغيرُ منذُ قرونٍ: العائلات الكبيرة، الموائد العامرة، الأزياء التقليدية، الثروات الطبيعية، الطبيعة الرائعة، البحر الأسود الواسع الممتد، والدلافين التي في البحر.

ليس عبثاً أن الأساطير القديمة تخلعُ على الدُلفين موهبةَ الإبداعِ، والأبحاثُ الحديثة تقول: إنّه حيوانٌ اجتماعيٌ يتمتع بالذكاء والقدرة على التواصل. وصورةُ الفتى الذي يسبح على ظهر الدُلفين تُزيّن القطع النقدية والمزهريات والنوافير. كنايةٌ عن اتحاد الإنسان بالبحر والطبيعة. إنه اتحادٌ حقيقيٌ حتى في العالم المتخيّل.

في الواقع، إنَّ هذا الحقيقي والأبدي هو الفكرةُ الجوهرية لكتاب يفغيني روداشيفسكي «مرحباً، أخي بِيْزو؟»، متمثلةً في الصداقة الحقيقية والحب الأخوي. والقدرة على التقارب بين كائناتٍ حية ذات صفاتٍ وطبائعَ مختلفةٍ.

إنّي على ثقةٍ ويقينٍ تامين أنّ هذا الطرح سيجدُ صدىً كبيراً لدى القراء ممن يتوقون لبناء علاقاتٍ متناغمةٍ ومنسجمةٍ مع الطبيعة، بصرف النظر عن أي اختلافات في النوع والصفات. ولمن يتوقون كذلك إلى الحياة البسيطة التي عاشها الإنسان في المجتمعات القديمة، والتي تجلَّت بوضوحٍ في الكتاب من خلال علاقة الصداقة التي جمعتْ الإنسانَ بالدُلفين، والمظاهر الاجتماعية لسكّان أبخازيا. وبهذا استحق الكاتب الفوز عن جدارةٍ بجائزة مسابقة «كنيغورو» لأدب الأطفال والناشئة لعام 2013.

ويمكن القول إنّ أبخازيا يفغيني روداشيفسكي تشبه أبخازيا فاضل إسكندر[2]، في قصة «مرحباً، أخي بِيْزو!» يُبرزُ روداشيفسكي الأرضُ نفسها كبطل من أبطال القصة. ويتحقق ذلك من دون افتراضات سحرية أو منعطفات فَنْتازية. كما هو الحال في قصص فاضل إسكندر التي تبدو فيها الأرض وكأنّها خارجُ الزمن. وهكذا تدفعنا قصّةُ روداشيفسكي التي تقفُ ملامح الزمن فيها عند حافةِ الوعي، على التفكير بالزمن وتأمل الواقع.

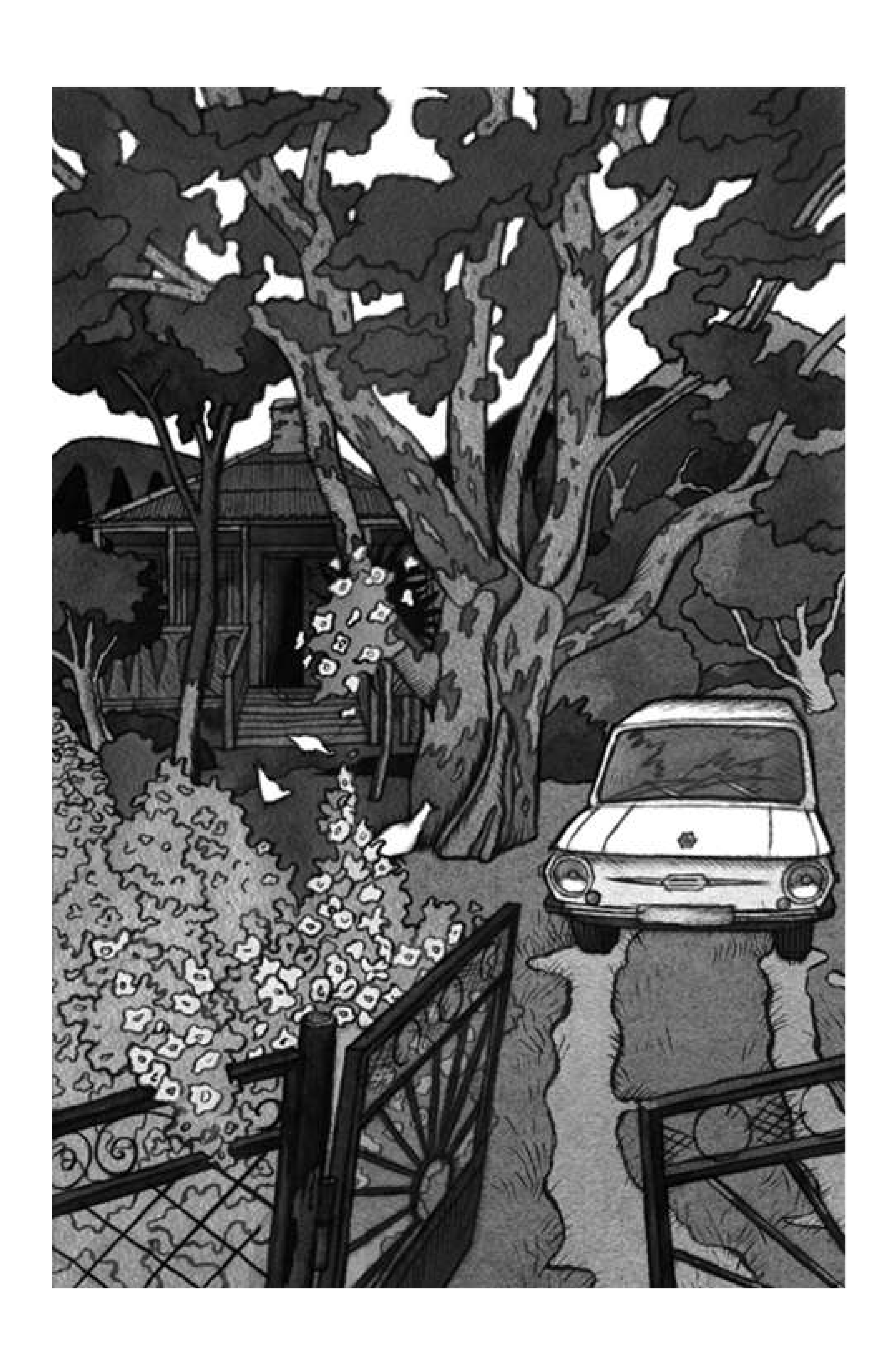
في ديسمبر من عام 1979 أرسلَ الاتحادُ السوفييتي جيشه إلى أفغانستان. منذ تلك اللحظة التي سبقت بداية السّرد، وحتى نهاية القصة التي يرويها روداشيفسكي، مرّ عامٌ واحدٌ.

... يوم 1 أكتوبر من عام 1980 تغيَّرت حياةُ حمزة كاغْوَا وصديقه الدُلفين إلى الأبد...

كسينيا مولدافسكايا

ناقدة أدبية

# الفصل الأول
# الربيع



صباحاً، في الساعة الثالثة بعد شروق الشمس، كاد صيّاد السمك حمزة كاغْوَا، ابنُ السابعة عشرة من عمره، أن يسقط وهو يقفز فوق السور الذي يفصل بين حجارة الشاطئ والطريق. فقهقه ضاحكاً وأسرع خطاه نحو البيت.

- أخي، يا أخي! - صرخ حمزة وهو يدخل من البوّابة راكضاً.

- ماذا جرى؟ - نهض داود عن كرسيّه قلقاً.

أنصتَ والدهما فاليرا وتجمّد في مكانه وهو يقوِّم السور خلف مستودع الذّرة الصفراء.

- هناك على الشاطئ! دلفين! - نطق حمزة عبر أنفاسه المتلاحقة.

- وماذا؟ - تعجّب داود، ثم هزّ رأسه وعاد إلى كرسيّه.

تابع فاليرا تقويم السياج.

- كيف... وماذا؟! - صاح حمزة. - ماذا نفعل به؟ فلتفهمْ، إنه على الشاطئ. على الأحجار! سيموت هناك!.

- لماذا لم تغلق البوابة؟ - سألت الأم هيبلا ابنَها الأصغر.

كانت في المطبخ اللصيق بالبيت تغلي الحليب لتصنع منه قريشة.

وحين نظرت صوب الزاوية لاحظت لامبالاة ابنها. فقد تنهّد، ثم عاد إلى البوابة وأغلقها.

- ليس الآن، يا باسكا! - ولوّح بيده للكلب الذي اقترب منه راكضاً.

إلا أن الكلب لم يبتعد. فقد أقعى بالقرب من قدمَي حمزة ورفع رأسه. ثم ثبّت نظره على صاحبه وهو يهزّ ذنبه سريعاً.

ـ ولكن لماذا خرج من البحر؟ - سأل داود.

- ومن أين لي أن أعرف؟ شيء غريب!

- لكن إيّاك أن تتأخر، - صاحت هيبلا. - لا تنسَ أنه ما زال عليك أن تُصلِح الحصير المجدول.

- أذكره، يا أمِّي، سوف نسرع. - وابتسم داود. - هيّا!

- فلنركضْ! - صرخ حمزة، وركض صوب الطريق لا ينتظر اعتراضات أخيه.

كانت بداية النهار رائعة. فقد خفّف الهواء من الحرارة البازغة للتوّ. أخيراً جاء الربيع، فتبخّرت الرطوبة المزعجة. وراح المسنّون الذين أرّقهم شهر مارس المميت يتأمّلون بمرح كيف تنتعش منطقتهم. كانت براعم أشجار البرقوق الزهرية الباهية تشعّ وهي تتفتّح، وأغصانها الرفيعة الشائكة تتمايل بطيئة في الهواء الدافئ. وشجرة الأكيدنيا بيضاء بأزهارها الصغيرة الغضّة، والروائح العطرة والأصوات شرعت تعود من غياهب النسيان في الشتاء.

كان حمزة أوّل من وصل راكضاً ليكون بالقرب من جسم هذا الدُلفين المتطاول الذي كان مستلقياً على الشاطئ هامداً كأنه ميت. ركع الفتى على ركبتيه. لم يسبق له أن رأى دلفيناً عن قرب إلى هذا الحد.

- هل هو ميت؟ - سأل داود.

- كلا، انظر جيداً. واضحٌ أنه يتنفّس.

- لقد أمضى الليل كلّه مستلقياً هنا.

جلس الشقيقان بالقرب من الدُلفين. إنهما لم يقررا بعد أن يدفعاه إلى الماء. كانا ينظران إليه باهتمام، ثم سمحا لنفسيهما أن يلامساه بكثير من الحذر. إلا أنهما كانا حريصين لكيلا يثيرا ضجيجاً، خشيةَ أن يكون الدُلفين نائماً فيستيقظ ويعضّهما.

كان جلده جافّاً ومشدوداً وظهره رمادياً، وبطنه فاتح اللون، عليه بقع وردية، وثمّة شريط أبيض حائل اللون ينتشر من رأسه عبر ظهره، وخطّان رفيعان يمتدّان من أنفه إلى فتحة التنفس لديه.

- هل يتنفس عبر هذه الفتحة؟ - سأل داود.

- ربما، - هزّ حمزة كتفيه.

لاحظ الشقيقان بالقرب من الزعنفتين الأماميتين ندبات قصيرة على هيئة أقواس، كأن أحداً حفرها بمشطٍ معدني. وكانت تلك الندبات كلها تقريباً حنطية اللون، قاسية، بعضها أحمر يمكن لمسه.

- من فعل بك هذا؟ - همس حمزة.

- ربما نأتيه بسمكة؟

- لا أدري... المسْه!

لمس داود الدُلفين من زعنفته الأمامية فوجدها ساخنة. كان على جلده انتفاخات مائية.

- غريب. الشمس ليست شديدة الحرارة... - علّق حمزة.

- إنه مريض، على ما يبدو. - أحضرْ له سمكة!

- أيُّ جدوى من السمكة! يجب أن ندفعه إلى الماء.

- وإذا ما عضّنا؟ لقد خرج بنفسه، فليعد بنفسه إلى الماء.

- ابتعدْ، إذاً.

دار حمزة حول أخيه وأخذ يدفع الدُلفين. كان الحصى يتراجع تحت قدميه، فلم تكن المهمة سهلة.

وكان داود يراقب صامتاً. لقد كان طول الدُلفين يبلغ مترين تقريباً، فكان وزنه ثقيلاً. وراح حمزة يجرّه من ذيله تارة، ومن زعنفتيه تارة أخرى. ثم ضغط على ظهره وهو يحاول ألا يقترب بيديه من رأسه. لم يعترض الدُلفين على هذا الاهتمام، وظل عديم الحركة كما كان.

- عبثاً تبذل كل هذا الجهد. لقد مات، - قال داود. ولكنه خلع قميصه وقرَّر أن يساعده.

- هيّا تحرّك! - شرع حمزة يحثّ الدُلفين ويكرِّر دفع جسمه المشدود.

وأخيراً تمكّنا من دفع الدُلفين إلى البحر. وما إن لامست موجةٌ زعنفتيه حتى فتح عينيه. فقفز داود مذعوراً.

- ابتعدْ! سيعضّك!

لم يجب حمزة بشيء. خلع حذاءه وألقى به بعيداً، ثم تابع جرَّ الدُلفين. وحين ألقى داود نظرة متفحِّصة إلى عيني الدُلفين الكبيرتين المحمرّتين انضمَّ إلى أخيه.

على بعد متر ونصف المتر عن الشاطئ غمر الماء ظهر الدُلفين، فانتعش وشخر قاذفاً الماء من فتحة تنفسه رَذاذاً، وهزّ ذيله. كان حمزة واقفاً بالقرب منه، فراح يداعب بيده صديقه الجديد وهو يضحك، ويقول:

- هه؟ أنت تقول إنه مات، وها هو حيّ، بل وكم هو حيّ! وسيعيش. أليس كذلك؟

- انتظرْ! دعْه يستجمع قواه. هيّا وأحضر له الآن السمكة.

- لكنني لن أركض!

انحنى حمزة واستمرّ يداعب بيده رأس الدُلفين. فيما وقف داود قليلاً، ثم أطلق بلسانه تسْتَسةَ استخفاف، وتنهَّد ومضى صوب البيت.

- طيّب انتظرْ.. سأحضر السمكة له الآن، لكن الوالد سيقتلنا إذا عرَف بذلك.

كان الدُلفين يستعيد وعيه في هذه الأثناء، فيكثر من تحريك ذيله، وتتوتر زعنفتاه، ويزداد جلده الأملس نعومة.

- ولكن لماذا تداعبه بيدك؟ - صرخ العجوز أهرا أبيدَجْ الواقف عند الصخور.

- يعطيكَ العافية، - قال له حمزة ومشى نحو الشاطئ.

- إنه مشدود الجسم أليس كذلك؟

- نعم.

- مشدود الجسم... - وجلس أهرا على برميل صدئ. - وأنا أيضاً كنت في صباي ألمس الدُلفين بيديَّ. إن الدلافين كثيرة هنا، ولكنها نادراً ما تسبح صوب الإنسان. وقد سبح دلفين نحوي ذات مرة.

أطلق العجوز ضحكة صغيرة ساخرة، ونظر إلى جزمته المقلَّمة بخطوط، ولمس جوربه العالي فوق الركبتين، كان حمزة يحب حكاياته، ولكنه الآن كان يخشى أن يسترسل أهرا فيضطرّ للإنصات إليه، فيما هو شديد الرغبة بأن يهتمّ بالدُلفين...

- يعطيك العافية! - ألقى عليه داود السلام وهو يجري، والماء يفيض من سطل يحمله فيه سمكتان.

- أوه... وقد قرَّرتم أن تطعموه! هل تريدون استئناسه؟

- آها، - ابتسم حمزة.

في الدقائق التالية انتعش الدُلفين تماماً. وراح يسبح ببطء بمحاذاة الشاطئ، وينظر إلى إخوته.

- هل هو ذكرٌ أم أنثى، يا تُرى؟ - سأل داود.

- وماذا يهمّك؟

ارتفعت الشمس فوق الهضاب، وعزَّزت النهار. لم يكن هناك غيوم. كان الهواء يدفع الأمواج نحو حصى الشاطئ برفق، وفاحت رائحة البحر، وظهر قاربان من جهة بيتسوندا، يتبعهما مركب طويل. وعلى مقربة من عمارةٍ ذات خمسة أدوار تعالى ضجيجُ منشارٍ يعمل على الوقود، ثم خمد في غمرة صراخ أصواتٍ كثيرة. فيما نورسان يحلّقان فوق الخليج الصغير.

ابتعد الدُلفين عن الشقيقين. وألقى له حمزة واحدة من سمك الحَفَش، فأثارت الهدية اهتمام الدُلفين، ولكنه بدلاً من أكلها راح يلعب بها، ويقذفها بأنفه على مهلٍ، ثم يُغرِقها، ثمّ يلقيها فوق سطح الماء. فعادت سمكة الحَفَش إلى الفتى حمزة وقهقه ضاحكاً.

هذا يعني أنه ليس جائعاً، - قال داود، عابساً.

وفيما كان حمزة واقفاً في الماء، ألقى بالسمكة مرة أخرى، ولكن إلى مسافة أبعد. فتكرر المشهد مجدداً.

ظلّ الدُلفين صامتاً تماماً. يسبح مبتعداً قليلاً عن الشاطئ، ثم يعود، ويلعب بسمكة الحَفَش. يُبقي أحياناً زعنفته مقوسة على سطح الماء ويتجمّد في مكانه. وبين وقت وآخر كان يتقلّب، ويدوّر بذيله الأمواج المزبدة.

بلغت السعادة بحمزة حدّاً جعل البسمة لا تفارق وجهه. فأن يجد دلفيناً على الشاطئ، ويلمسه، ثم ينقذه، شيء مفرح وغير عادي. راح حمزة يتخيَّل بأيِّ كلمات وحركات سوف يحكي لوالديه كل شيء.

- لا أفهم لماذا خرج الدُلفين إلى الشاطئ؟ - تساءل داود.

- لا أعرف، ربما صُدْفة.

لفّ العجوز أهرا الذي كان يراقب الشقيقين سيجارة، ثم بلَّ ورقتها بلسانه وأشعلها. راح دخانها يخرج ببطء من أنفه، ويتعثَّر على شاربَيه الأشيبَين، ثم ينتشر دوائرَ كثيفة حوله.

أخيراً غرقت السمكة التي قُدِّمت هدية للدلفين.

- حان وقت الذهاب إلى البيت، يا حمزة. أمُّنا ستوبِّخنا.

- نعم... ولكنه لا يرحل. فمتى سيتاح له أن يلعب مرّة أخرى على هذا النحو؟

- يستطيع أن يلعب هنا حتى المساء... يجب أن نذهب.

- هيَّا!

خرج داود إلى الشاطئ، فجلس على الحصى ونشّف قدميه ولبس حذاءه الخفيف. وتنهّد حمزة وأدار ظهره إلى الطريق ليتابع بنظره صديقه الغريب. إلا أن الدُلفين تجمّد حين رآهما يبتعدان عنه، واستمر ينظر بصمت إلى حمزة. ثم غطس، وسرعان ما عاد إلى الظهور وعلى أنفه سمكة الحَفَش المدعوكة.

اقترب حمزة من أخيه عابس الوجه، ولبس حذاءه من غير أن ينشف قدميه. وتغضّن جبينه، وكانت حركاته حادّة تنمّ عن غضب.

- دع عنك هذا، لا تنزعج، - وظل العجوز أهرا يدخن سيجارته الثانية.

ما إن وصل الشقيقان إلى الطريق حتى قفز حمزة:

- نعم!

- ماذا؟

- لقد رأينا دلفيناً! - قال الفتى بصوت يشبه الصراخ، ثم ابتسم ودوّت ضحكته. - مَن غيرُنا رأى دلفيناً عن قرب مثلنا، قل لي؟ لا أحد! أمّا نحن فقد لمسناه وداعبناه. فهذا... هل رأيت رأس أنفه؟

- رأس أنفه؟

- بالضبط! يجب أن نحكي هذا للجميع!

راح حمزة المسرور بما حدث يلوِّح بيديه فرحاً، يضرب نبات القرّاص بعصاه، والحجارة الصغيرة بقدمه.

هبّت نسمة هواء وظهرت غيوم متفرقة بالقرب من الشمس علامة وداع بسيط، وازداد تحليق طيور النورس على اللسان الممتدّ في البحر، وهي تسرع باتجاه مراكب صيد السمك البعيدة، وفي باحة بيت بطل أبيدَخا، جارِ عائلة كاغْوَا، كانت الكلاب تنبح.

نسيَت النباتات والأعشاب الخضراء رطوبةَ الشتاء المنهِكة، واشتدّ عودها أخيراً، وانتشر عطر أزهارها الفوّاح. وعلى امتداد الأسوار كانت تتلألأ عشراتٌ من تدرجات اللون الأحمر والأصفر والأزرق، وكأن رسّاماً أراد أن يزخرف سياجاً بمزيجٍ من ألوانٍ زاهية، وأزهرت في الباحات أشجار التوت المتواضعة.

لم يكن الهواء ساخناً بعد، كان عذْباً.

وكانت الجبال القريبة تبدو مثلَ تلال من صوفِ أغنام ضخمةٍ وعملاقة، لونها أخضر تتخلله ظلال عروق سوداء. لم يكن يعكِّر هذه اللوحة إلا هضاب نادرة الجروفِ جرداء. تجمّدت فوقها غيمة منفوشة بيضاء. وإلى الشمال قليلاً، بين الهضاب والغيمة، تغفو جبال القوقاز تلّةً تلو تلّةٍ. وكلما ازداد الجبل بعداً وارتفاعاً ازدادت صورته شحوباً. تحت ضوء المساء تنقلب هذه الجبال سحُباً قاتمة لا تتحرك.

- ألم يحكِ لكما أبوكما عن تعرُّفه إلى الدلافين؟ - سألت هيبلا وقت العشاء.

- لا، - ونظر حمزة بتعجب إلى فاليرا الذي ارتسمت على شفتَيه بسْمة ساخرة. ولكنه لم يقل شيئاً.

- ناولني قطعة آخول[3]، - طلب داود.

- خذْ، - ناوله حمزة الوعاء.

- ليس عجيباً. لم يكن شيئاً جيداً، أليس كذلك؟ - توجهت هيبلا بالسؤال إلى فاليرا الذي ابتسم ساخراً من جديد. - فالأب كان يشتغل يومها في (مصنحييَحْ)[4] في مدينة نوفوروسيسك.

- يا له من اسم، - قالت الجدّة تينا.

- كان ذلك عام ثلاثة وستين...

- عام واحد وستون، - صحّح فاليرا.

- الملح قليل، - همس داود.

- في تلك الأيام كانوا يصطادون السمك والدلافين.

- مَن هم؟ - هتف حمزة.

- نعم. حينها كان ذلك سائداً في كل مكان. بل وعلى أعلى المستويات. كانوا يصنعون منها جلوداً و... شيئاً يشبه زيت السمك.

نظرت هيبلا إلى زوجها يحدوها الأمل بأن ينهي كلامه أو يصحِّح لها ما ترويه. كان فاليرا صامتاً يمضغ سمك البوري المسلوق ويشرب العصير، ويبدو أنه لا يستمع إلى ما تقوله زوجته.

كانوا يذهبون إلى البحر بقواربهم ومراكبهم فيطوِّقون الدلافين بشبكٍ كبير ويدفعونها إلى الشاطئ. لقد أخرجوا من البحر عدّة آلاف من الدلافين التي كانت ما تزال حيَّة. لم يكن بمقدورهم أن يقطّعوها كلّها فوراً، فكان معظمها يبقى مستلقياً في مكانه أياماً بلياليها و... يموت.

- إنك لا تتصور ذلك المشهد! - قال فاليرا فجأة. ومرَّر يده على رأسه الآخذ بالصلع، مبعداً صحنه الفارغ، وأردف: كنت يومها أعيش مع صيادي سمكٍ آخرين على سطح البحر. كان ذلك أسوأ من أي تعذيب! فقد كانت الدلافين تختنق هناك تحت الشمس، ولا تكفّ عن الشخير أياماً بطولها. آلاف الدلافين! كان الشاطئ مغطّى كلّه بأجسادها الرمادية. شخيرٌ أبشع من شخير المحاصرين في المناجم!

- هذا... شيء رهيب! - وهزّ حمزة رأسه.

- طبعاً! لم نكن نشبع نوماً، آلام تشقّ الرأس، يصل الأمر حتى العراك أحياناً...

- إنه يتحدث عن شيء آخر، - وابتسمت الجدَّة تينا.

لاذ فاليرا بالصمت، وأشعل سيجارة. ضمّ كفَّيه فوق بطنه ونظر بضجر إلى خمّ الدجاج.

هذا ثاني أسبوع لا تتناول فيه عائلة كاغْوَا عشاءها في مطبخها اللصيق بالبيت، وإنما على طاولة في الباحة. كانت الليالي باردة قليلاً، لكنها طيّبة بفضل الجفاف الذي حلّ. وكان عدد النجوم يتزايد في السماء البنفسجية القاتمة.

- باسكا! - نهرَه حمزة. - افرح!

وضع الكلب أماميتيه على ركبتي حمزة، ولوَّح بذيله وهو يراقب كيف ترتفع قطع سمك البوري على الشوكة نحو فم الإنسان. فضحك الفتى من هذا الاهتمام، ثم غمغم وجاد على باسكا بلقمة.

خطر الدُلفين على بال حمزة وهو يغفو: «لماذا، يا تُرى، ظلَّ صامتاً؟ فتلك الدلافين التي كان والده يصطادها كانت تشخر، أمّا هذا فلم يصدر عنه صوت. شيء غريب. لعلّه أخرس؟» ثم ساور القلقُ حمزة وهو يتخيّل أن أحداً ما بعْده، مَزاوتش مثلاً، قد يكون نزل وداعب أيضاً بيده ذلك الدُلفين المنهَك، وعرض عليه سمكة، فقد كان الفتى يريد أن يكون الوحيد الذي فعل ذلك.

في الصباح ذهبت عائلة كاغْوَا إلى حقل الذرة الصفراء. لم يكن العمل هناك صعباً، ولكنه مملّ. فقطعة الأرض المخصصة لهم كانت بجوار أراضٍ للجورجيين الغرباء، ولن يكون هناك من يتكلم معه وقت استراحة الغداء.

كان عطر الأرض المحروقة يفوح في الجو. وحين خرج فاليرا من السيارة، وهو من يحب هذه الرائحة، انحنى ووضع راحة كفّه على العشب الناعم وكأنه ينصت إلى دقات قلب الحقل.

كان يطير في السماء صقرٌ ذو لون رمادي قاتم استدار جهة الجنوب وأطلق نعيقاً بشِعاً كمواء القطط.

كان يجب زرعُ الذرة الصفراء خلال نهارٍ واحد من أجل العودة في الغد إلى صيد السمك.

أخرج داود من الزريبة محراث الجد القديم، ونفض ما تجمع عليه من غبار خلال عام. وكما في الربيع الماضي، تلمّس المقبض الذي أتلفته الرطوبة قليلاً، فتنهّد وعاهد نفسه على أن يستعيض عنه بمقبض جديد في الصيف القادم. وفي هذه الأثناء كان حمزة قد جاء بثورٍ من عند طوران، شقيقِ هيبلا الأكبر الذي كان يشتغل على بعد كيلو مترٍ واحد من حقل كاغْوَا.

ابتسم فاليرا وهو يفحص سِكّة المحراث ثم يدقّ على جانبيها. لم يلحظ ذلك أحد. وحينها تَسْتَسَ بلسانه، ثم هزّ رأسه وأطلق ضحكة ساخرة.

- ماذا بك؟ - استغربت هيبلا وهي تتفحص بأصابعها حبّات الذرة الصفراءَ الكالحة.

- لا شيء... تذكرتُ نكتة رواها لي ساشكا بالأمس.

- هه؟

- ماذا؟

- احْكِ، ما هي!

- القصة وما فيها. - أهمل فاليرا المحراث. فتناول من جيبه سيجارة وأشعلها. ثم قال، وهو يطلق دخانها مع الكلام! تخاصم في إحدى القرى صديقان.

- هل هما أبخازيّان؟ - سألت الجدّة تينا.

- وما علاقة هذا بالموضوع؟

- الآن لكل شيء علاقة. وخاصة بهذا الموضوع.

- طيّب، تخاصم صديقان أبخازيّان. وغضب أحدهما، فتناول بندقيته وقتل صاحبه.

- يا لهما من صديقين، بسطت هيبلا يدها وابتسمت.

- يا لها من نكتة، تجهّم وجه الجدّة تينا.

- إذن، كان الصديقان جورجيَّين.

- دعوني أكمل! - استاء فاليرا وأردف حالاً بصوتٍ هادئ: جاءت الشرطة من المدينة، وأخذت تحقق. كان كل شيء واضحاً، فأخذوا القاتل.

- إي! - صرخ حمزة بالثور الذي كاد يصيبه بقرنه.

- وفي الوقت نفسه صادروا كل البنادق. وعندئذ قال أحد الفلاحين في الكولخوز[5]: «يا له من أحمق! لماذا أطلق عليه النار من بندقية؟ كان الأفضل أن يخبطه بالفأس! لكان بذلك حرّرنا من الفؤوس!» فهمتُم؟ أي هو ظنّ أنهم في هذه الحالة ما كانوا صادروا البنادق، وإنما الفؤوس، وما كنّا عدنا إلى العمل بعد ذلك.

هزّت هيبلا رأسها، ورسم داود شبهَ ابتسامة، أمّا فاليرا فقد جلجلت ضحكته بعد آخر كلمة، ولكنه ما إن رأى أن الآخرين غيرَ مبالين حتى صمت، ثم تنهّد وعاد إلى محراثه.

كان عليه في البداية أن يحرث الأرض البور. وكانت هيبلا تسير على مهل خلف المحراث وتنثر في الخطوط حبّات الذرة الصفراء والفاصولياء معاً لتتسلق هذه الأخيرة على نبات الذرة فلا يعود هناك من حاجة لغرس شيء إضافي تستند إليه الفاصولياء في نموّها.

كانت الجدّة تينا تراقب عملية الزراعة وهي جالسة على خشبة ملقاة بالقرب من سياجٍ تالفٍ تُفصِّص البذور بأصابعها وتتأمل النباتات الخضراء التي تغطي الهضاب القريبة.

بعد حراثة الحقل ورشِّ البذار فيه، كان فاليرا يتبع الثور ويعدّل وراءه الحصير المجدول فيدحرج عليه عشرة أحجار. وكان داود يقود الثور، فيما ينظر فاليرا لكيلا ينحرف الحصير وينزلق عن الخطوط المزروعة، هكذا كانوا يسوّون الأرض.

كان حمزة يساعد والده، وهو مشتت الذهن. يراقب كيف تسوّى كتل التراب اليابس، ويسمع هسيس الحصير المجدول، ويفكر بالدُلفين. لم يستطع حمزة أن يتذكر كيف كان ملمس الدُلفين، فيقول لنفسه: «مشدودُ الجسم، جافٌّ»، ولكن ذلك لم يكن كافياً له، أراد أن يلمسه من جديد، أن يمسّده وأن يرشَّه بالماء.

نهضت الجدّة تينا عن الخشبة، فوقفت قليلاً، ثم مشت بمحاذاة خطوط الحراثة. ولأن فاليرا يعرف أن أمَّه تشكو من ألمٍ في رجليها خلال النهار، فقد تعجَّب:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- كانت جدّتي تقول، المشيُ بلا هدف، أفضلُ من الجلوس بلا جدوى!

خلّفت الشمس وراءها برودةَ الجبال، ومضت نحو منحنى السماء الخاوية، واستلقى الرجال تحت شجرة الجُمَّيز يستريحون. كانت ظلالُها كافية للجميع. أخرجت هيبلا من صندوق السيارة سلّة فيها قريشة، وسمكٌ مجفّف ونوعٌ من الجبنة وخبزٌ مرقوق. تناولوا الغداء على مهل. كان الجسم يتقبل الطعام مكرَهاً ويطلب النوم. وبعد غفوة استمرت عشر دقائق، انتعش حمزة.

قريباً منهم كان الجورجيون يستريحون.

- وأين العصير؟ تعجَّب فاليرا.

- لا تطلبِ العصير، ستشربه في البيت، - أجابت هيبلا وأذْنتِ الجبن من زوجها، فقلبَ شفته استياءً.

لقد كبر بطن فاليرا في السنوات الأخيرة، وتساقط الشعر عن رأسه فلم يبق إلا شعرات شابت. نادراً ما كان يحلق لحيته، ولم يعد يخجل من شيبها. كانت على كتفه ندبة طويلة تذكِّره بالحرب. إذ عندما اقترب الألمان كان فاليرا في بلدة بسْخو، واضطر إلى مغادرتها والاختباء في الجبال. وذهب كثير من الأبخازيين إلى غوداوُتو، واشتغل مَن بقيَ منهم باصطياد الأعداء تحت جنح الظلام أو في الضباب، فكانوا يعذِّبونهم ثم يتركونهم للجقْلان[6]. كان الألمان ينتظرون ريثما يصل أسطولهم إلى ميناء سوخومي، ويتصدّون للجبليين بالرصاص. وانسلّ فاليرا هارباً بين أدغال شجيرات، عندما رآه الحارس، وألقى بنفسه في نهر «بْظيبْ» فمزّقت شجرة معمِّرة كتفه بغصنٍ حادّ كاد يقتله، ولكنه نجا. لم يطلب حمزة من والده أبداً أن يحكي له عن الحرب. ولم يكن الآباء يتحدثون عن تلك السنوات. وقد كتموا أيضاً ما يعرفونه عمّا جرى في تلك الفترة، وعن سبب رحيلهم من تكفارتشال... في شهر نوفمبر سيبدأ فاليرا العام الثامن والخمسين من عمره.

أنهت عائلة كاغْوَا زراعة حقلها نحو الساعة الخامسة مساء، فقد كان صغيراً بالمقارنة مع حقل الجورجيين المجاور.

في المساء ذهب حمزة وداود إلى الشاطئ لكي يتفحّصا القوارب والشِّباك قبل الانطلاق إلى صيد السمك في الغد. كان الشقيقان يضحكان وهما يقذفان حجارة صغيرة ليُظهر كلٌّ منهما قوّته، ولكنهما كانا يفعلان ذلك برِفْق، طبعاً.

- انظر! - صاح داود وهو يشير إلى البحر.

التفت حمزة وتجمّد مكانه، ثم انفجر بالضحك. على بعد عشرة أمتار من الشاطئ كان صديقهما دلفين الأمس يسبح. لم يكن من السهل أن تراه، فقد كان يعوم فلا يظهر منه إلا زعنفة ظهره ورأس أنفه، زِدْ على ذلك أن البحر كان مائجاً. وحين اقترب حمزة من الماء راكضاً ظهر الدُلفين كلُّه، وهز رأسه مثل طفل اعترف بهزيمته في لعبة الاختباء.

- ماذا تفعل هنا؟ - صاح به حمزة.

لقد أحسّ بالفرح أكثر من الأمس ولم يستطع أن يهدأ، فراح يمشي على طول الشاطئ المتعرّج تارة، ويجري تارةً أخرى إذا رأى الدُلفين يتبعه. بينما كان داود جالساً بجوار القارب ينظر إلى أخيه وبالكاد يبتسم.

- أنت الآن ستأتي إليَّ سباحة كل يوم، أليس كذلك؟

كان الدُلفين كثير الحركة. فراود الشكُّ حمزةَ فوراً: هل هو دلفينُ الأمس نفسُه أم غيرُه؟ ولكن ما إن رأى الندوب المعروفة على خاصرتيه حتى اطمأن.

لاعَب حمزةُ هذا الحيوان البحري مثلما يلاعب كلباً. يركض ثم يتوقف، ويعود فيستأنف الركض. وكان الدُلفين يقلّد حركاته. ثم سقط حمزة وتجمّد في مكانه. وعندئذ اقترب الدُلفين من الشاطئ حتى المنطقة الصخرية الضحلة المياه. بحث عنه ولمّا لم يجده خضّ الماء بأنفه.

أخيراً طوى الفتى عنق جزمته العالي، فخلعها، وفكّ قِماط قدمَيه، ثم ثنى فردتَي بنطاله إلى ما فوق ركبتَيه ودخل الماء.

- حذارِ! - صاح به داود.

لم يردّ عليه حمزة. فقد خاف هو نفسه ممّا يفعله. «مهما كان، يظل هذا الحيوان مفترساً...». وبرغم ذلك، خطا ثلاث خطوات أخرى، والدُلفين يراقبه. ثم هزّ ذيله وتنحّى جانباً على مهله.

- وما الذي تخافه؟ - سأله حمزة مبتسماً ومدّ يديه إلى الأمام.

ترامى إليه من وراء ظهره قعقعةُ نباحٍ عالٍ. كان ذلك باسكا وقد قفز إلى الشاطئ.

- باسكا! - فرح حمزة. - تعال إلى هنا. سأعرّفك!

قفز الكلب بمحاذاة داود، وطمر أماميتيه في الحصى. ثم اقترب من الفتى، ونبح بصوتٍ أقوى، ولكنه لم يجرؤ على دخول الماء. كان كلَّ مرّة يتراجع راكضاً ما إن تنكسرُ موجاتٌ صغيرة بصخبٍ وينتشر رَذاذُها بالقرب من خطمه. وفجأة صمت باسكا، وأقعى متوتراً إذ رأى الدُلفين. فقهقه حمزة ضاحكاً لهذا التغيير.

تنهّد داود وتابع عمله في تفحّص الشِّباك وتثبيت السُّدَادات في الجزء الخلفي من القارب.

- ماذا أسمِّيك؟ - همس حمزة. - ربما إِت -نيخ؟ كلا. هذا اسم... رسميّ للغاية. أعرف! - هتف الفتى بصوتٍ عالٍ كي يسمعه أخوه. - سأسمّيك بِيْزو!

- بِيْزو؟ - تعجَّب داود.

- نعم. أظن أنه اسم جيّد لدلفين.

- وإذا كان أنثى؟

- هل هو أُنثى؟.. حتى إنّي لا أعرف... كلا! إنه ذكرٌ حتماً!

كان الدُلفين يسبح على شكل أقواس بمحاذاة الشاطئ. وكان لَعوباً، إلا أنه لا يسمح لأحد بالاقتراب منه. وأطلق قليلاً من الماء على حمزة، فضحك وردّ عليه بالمثل. وعندئذ أطلق بِيْزو الماء بقوة، وبدأت عاصفة حقيقية. كان باسيا يراقب، بسكون وبدون حركة، كيف يغرف صاحبه حفناتٍ من الماء ويرشق بها هذا الدُلفين الغريب، وكيف يردّ عليه الدُلفين بحركة قوية من رأسه، ولم يستطع أن يفهم ما يجري. كان الكلب يتحلّى بالتأمل والصمت.

رتَّب داود الشِباك في القارب، وألقى نظرة على الشمس وهي تهبط نحو بيتْسوندا.

- أليس له ما ينشغل به، يا تُرى؟ - صرخ مخاطباً أخاه.

- ماذا قلت؟

- أم أنه ليس له أسْرة وأصدقاء؟ إنه منذ ساعة يلهو معك، فيما يجب عليه حتماً، مثلما يجب عليك أيضاً، أن تعمل...

- أنت كالجدّة.

- وما علاقة الجدّة هنا؟ - سأل داود منزعجاً. - فقد حلّ المساء، على كل حال.

- إنّي أنقذتُه من الموت...

- كِلانا أنقذناه.

- طيِّب، كِلانا. لذلك جاء إلى عندنا. ليشكرنا.

انتظر حمزة ريثما نشفت قدماه، ثم شرع يلبس حذاءه، فلاحظ باسيا ذلك وتحرَّك متراجعاً بخطوات بطيئة. وحين وصل إلى الطريق تجرَّأ ونبح. ولأن صمته كان طويلاً، نبح الكلب بصوت عالٍ وجهدٍ كبير.

دنا بِيْزو من الشاطئ، فأطلق عدّة رشقات وانتظر الرد.

- عفواً. فقد آن لي أن أذهب، - قال حمزة مودِّعاً.

نظر الدُلفين إلى الشخصَين وهما يغادران. ثم ضرب الماء بذيله مرتين أخريين. وأخيراً رحل.

- إي؟ هل استيقظتم؟ - صرخت الجدّة تينا في الصباح. لقد فرغت للتو من إطعام الدجاجات والديك، وها هي تُخرجها إلى حديقة البيت لتنقر ما قد يظهر لها من أفاعٍ.

كان حمزة يشرب قهوته، ويأكل اللوبياء بالخبز المرقوق وهو يلقي النظر إلى باحة البيت.

لم يكن بيت كاغْوَا كبيراً، ولكن غرفه الأربع كانت تتسع لعائلته كلِّها من غير ما ضيقٍ أو شكوى. بل وخصّصوا غرفة للضيوف، وكانوا يؤجّرونها أحياناً للغرباء.

كان البيت مبنيّاً على ثماني صخور كبيرة منحوتة، أساسه من خشب السنديان، وجدرانه من خشب أشجار الكستناء. وكانت تؤدي إلى مدخله مصطبةٌ إسمنتية صُبَّتْ بطريقة بشِعة.

كثيراً ما كان الدجاج يروح ويجيء في الخندق الصغير المحفور بين البيت والأرض، والذي يلجأ إليه أحياناً الكلب باسيا أو القطّ ميستان بعد فعلٍ شنيع. وكان حمزة يحب هذا المكان أيضاً في طفولته، يحبو إليه، وبالطبع، كان يلوّث ثيابه فينال التوبيخ من هيبلا على ذلك.

وكانت تنبسط أمام البيت شرفة، سقفُها خشبيّ، وأرضها من تراب. لم تكن جدرانها إلا سياجاً من أزهارٍ تركية تنمو بكثافة، تُلقي ظلاً لطيفاً في الأيام الحارّة. وأبعد من ذلك قليلاً يوجد المطبخ المبنيّ قريباً من الشرفة. لقد أوجَدت الجدّة تينا فيه خلال الأسبوع الماضي مكاناً للنوم، على غِرار ما كان يفعل والداها في الماضي، تقضي فيه لياليَ دافئة بالقرب من القدور والطناجر. ووراء المطبخ كانت توجد مشاتل الخضار.

أمام الشرفة كانت تنمو أشجار الأكيدنيا والليمون والفيخوَا. وعلى مقربة من سيارة فاليرا «زاباروجِتس» كانت تنتصب شجرة جُمَّيز ضخمة، تنام هيبلا تحتها أحياناً في النهار. وخلف الجميزة ينمو البرقوق. وهنا أيضاً، بمحاذاة مستودع الذُّرة الصفراء، كانت توجد أعمدة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار يعلقون عليها بعد جنْيِ المحصول سيقان الذرة الصفراء لتجفّ وتقدَّم علفاً للحيوانات في الشتاء. ولمّا كانت عائلة كاغْوَا لا تملك حيوانات، فإنها كانت تعطي سيقان الذرة هذه لطوران، شقيقِ هيبلا.

كان مستودع الذرة الصفراء، كالبيت، مرتفعاً عن الأرض ليس من أجل الدفء، وإنما حمايةً له من الجرذان. وإلى هذا الخندق أيضاً كانت كذلك تلجأ الدجاجات، وباسيا، وميستان، وحمزة في طفولته.

كان البيت يحجب خلفه مستودعاً طويلاً ومعتِماً وبمحاذاته توجد مقبرة العائلة. هنا كان يرقد زوج الجدّة تينا، وأخوها، ووالدة فاليرا (كان والدها مدفوناً في تكفارتشال). ووراء شجرة البرقوق، مقابل المطبخ، كان يوجد الحمّام، وهناك يبدأ دربان ضيّقان، يفضي أحدهما إلى المرحاض، والآخر إلى جُنَينةٍ فيها أشجار المندَرين والدرّاق. كان جزء من السياج هناك قد تهالكَ، ولكن شجيرات الغار كانت تدعمه وتعزّزه.

وكانت توجد من جهة بوابة البيت طاولةٌ طويلة للغداء، وهناك أيضاً كان يوجد خمٌّ للدجاج، وقريباً من البوابة نخلة قصيرة.

خرج فاليرا قبل ولدَيه. فقد كانا ينتظرانه اليوم في مركب الصيد. إذ كانت عائلة كاغْوَا تعمل في المعمل المَحليّ للسمك، ولكنها لم تكن تنسى عملها الخاص بالصيد أيضاً.

كان القط يعرف أنه قد ينال العقاب، لذلك لوَّح بذيله وتقوّس استعداداً للهرب في حال الخطر، إلا أن حمزة كان فرحاً به. فراح يمدّ له أصابعه واحداً تلو الآخر وهو يضحك، فيما يحاول القط أن يلحسها.

- ليس عندي سمك. تعال وقت العشاء. حسناً؟ هل ترى؟ - قدَّم الفتى صحنه لميستان. لم يكن فيه إلا الفاصولياء وبعض البقدونس. هذا الطعام لا يعجبك.

ارتخى القط وهو ينصت إلى الإنسان، ثم بسط ذيله حول الفنجان وتثاءب. وهنا تقدمت نحوه هيبلا من الخلف وأنزلته على كفّها إلى الأرض كأنها نفضتْه. فأطلق ميستان مواءه متفاجئاً، ثم انطرح على العشب وتجمد في مكانه. وما إن تابعت هيبلا طريقها حتى جلس وشرع يحكّ خطمه بيده.

عاد الشقيقان من البحر حين حمَيت الشمس. فبحلول شهر يونيو لا يعودان يسمحان لنفسيهما بالذهاب إلى الصيد في مثل هذا الوقت المتأخر، خوفاً من قيظ الظهيرة، بل يستعدّان للقيام بذلك قبل الفجر. كان الماء صافياً في الخليج، ولكنْ سرعان ما ازداد عمقُه حتى بات يتعذّر على العين أن تتبيّن القاع بعد خمسة أمتار من الشاطئ.

وفي أعقاب الأخوين كاغْوَا ذهب إلى البحر كلٌّ من فيليكس ومَزاوتش تصوغْبا الذي كان في عمْر حمزة. بينما كان عمْر فيليكس ثلاثة وعشرين عاماً، فهو أصغر من داود بعامٍ واحد. ولم يكن الأبخازيون من قرية لِذْزا يحبّون الأخوَين تصوغبا لأنهما كانا أكثر اختلاطاً بالجورجيين، وكانا حسودَين، ويقال إنهما كانا أحياناً يغشّان أبناء القرية، غير أنه ما من أحد كان يبوح بشعوره الكريه تجاههما.

كان الكيروسين غالياً، فلم يكن صيادو السمك يستعينون بقواربَ تشتغل بمحرّك الديزل إلا فـي حالات اضطرارية، وكانوا فـي العادة يستخدمون المجاديف.

انطلق الشقيقان كاغْوَا في قاربين، بينهما فارق زمني ضئيل. وحين غادرا الخليج ربطا طرفي الشبكة بمؤخِّرتي قاربيهما وأخذا يتباعدان وهما حريصان على ألا تتشابك الشبكة وتلتفّ على بعضها بعضاً وهي تغطس في الماء. فرْقعتِ العوّامات الخشبية وسقطت. فبات الانطلاق إلى الأمام الآن ممكناً، وذلك لشدّ الشبكة الثانية؛ ثم بدأ الانحراف والتقارب خشية أن تتسبب المراكب وزوارق التجديف عن غير قصد بتخريب الشبكة وتقطيع خيوطها. يضاف إلى ذلك أن بعض الشِباك سبق أن ضاع عدة مرّات. وكان صيادو السمك يتهامسون مشكِّكين بعمّال معمل السمك الجورجيين، إلا أنه لم يكن لدى أحد أدلّة على ذلك. لم يكن هناك خوف على الشبكة الأولى، فما من أحد يدخل الخليج من هذه الجهة، ولن يجرؤ لصٌّ على الدخول علَناً، فكل شيء هنا مرئيّ ومكشوف.

دخل الكلب باسيا إلى البحر بصحبة حمزة. أخذ يركض في القارب جيئة وذَهاباً بين المقدمة والخلفية. وفي هذه الأثناء يتوقف عند حافّة القارب ويحدّق في الماء كأنه يتوقّع أن يرى هناك فريسة. وأحياناً ينبح ويهز ذيله، ويدق الأرض بأماميتيه، فيما يضحك حمزة وهو يراقب الليل. وأصبح باسيا أكثر إضحاكاً عندما سحب الصيادون الشبكة وأفلتت منها فجأة سمكة. حينما رأى الكلب هذا المشهد جنَّ جنونه، فراح يثب، ويجري، وينبح، ويهجم على السمكة، ويقلّبها بأماميته، ثم هدأ، ولكنه استراح قليلاً، ثم استأنف النباح. وبسبب هذا التصرف أطلق حمزة على الكلب اسم القبطان. حقاً، لقد كان ممكناً أن يبدو نباحه بمثابة أوامر فظّة يوجهها لبحّارة كسالى تنقصهم المهارة.

بعد أن فرش الأخَوان كاغْوَا الشبكتين انحرفا فوراً مقتربَين جداً من بعضهما بعضاً حتى راحت جوانب قاربيهما تتلامس في أحيان نادرة وينتج عن ذلك احتكاكٌ خفيف. كان داود يصطاد السمك بالصنارة. وكانت الشمس في عزّها، إلا أن الحرّ ظلّ ربيعياً، رقيقاً، لطيفاً. والغيوم، التي كانت نادرة ومتفرقة بطريقة عصبية في السماء، كانت معدومة الحركة تقريباً، تتجمّع أحياناً لتبدو شارعاً عريضاً، لكنها كثيراً ما كانت تتقطع مِزقاً رقيقة. والهواء الذي أنهكه طقس الشتاء كان ضعيفاً، يهبّ فجأة من مسافات بعيدة في البحر ثم يغفو على الشاطئ ويعود بعد دقائق ضجِراً حاملاً في طريقه روائح الصنوبر والأرض. ما تبقّى كانت تفوح منه رائحة البحر، لم تكن ثقيلة، بل كما هي في الصيف.

- انظرْ! - قفز حمزة وهو يثبِّت قبعته:

- ماذا؟

- هناك! إنه بِيْزو!

غيرَ بعيد عن القوارب ظهرت زعنفة سوداء.

- بِيْزو! - صرخ حمزة بصوتٍ أعلى. - تعالَ إلى هنا!

- قد يكون هذا دلفين آخر.

- كلا. إنه بِيْزو، أنا واثق...

اقترب الدُلفين من القارب. في البداية اختفى تحت الماء الضارب إلى اللون الأخضر، ثم صعد مرة أخرى ومدّ خطمه.

- بِيْزو. - ضحك حمزة وكرّر اسم صديقه. - بِيْزو!

أبصر الفتى الندوب على خاصرتيّ الدُلفين. ولم يعد يشكّ في أنه بِيْزو بالتأكيد، فمدّ له يده. ودنا الدُلفين منه، إلا أنه لم يسمح لنفسه بالوصول إليه، وحافظ على مسافة متر أو مترين بينهما.

هدأ باسيا، فاختبأ خلف حافة القارب وراح يسترق النظر من مَكْمنه. لقد تخلّى عن مظهر القبطان، وبات الآن صامتاً.

كان داود يراقب أخاه، ولكنه لم يهمل صيد السمك. وسرعان ما أخرج من البحر سمكة بوري حمراء أخرى. وبضربة سريعة على حافة القارب قضى عليها. فهتف حمزة حين رأى ذلك:

- داود!

- كلا! - لقد فهم قصد أخيه.

- ما لك! هل حقاً تبخل بها؟ يجب أن تجود بها!

- كلا!

- داود!

- لقد جننتَ...

وألقى داود بالسمكة الكبيرة إلى حمزة، ثم أثار الخوفَ في الدُلفين حين حرّك المجاديف في الماء متظاهراً بأنه يريد أن يبتعد عن المكان، إلا أنه توقف بعد قليل ورفع الصنارة من جديد.

أخذ بِيْزو يتمايل بين الأمواج وهو ينظر إلى هذا الإنسان. وتوقف حمزة عن الضحك. لقد خطر له أن عيني الدُلفين غريبتان في كونهما على نحو غير مريح على جانبي رأسه تكادان تلامسان فمه.

ورغم ذلك فإنهما جاحظتان ومستديرتان تنظران إليه في وقت واحد، وذلك خلافاً لعيون الدجاج. وقد أضحكت حمزةَ هذه المقارنةُ بين الدُلفين والدجاجة.

- نعم... وازداد استناداً إلى الحافّة فمال القارب، وانجرفت سمكة البوري وصدر عنها حفيف على السطح المائل، وتبعتها مَطَرَةُ الماء، وقطعة القماش المشمّع، والعصيّ، والمطرقة الصغيرة.

خاف باسيا وتشبث بالأرضية الألمنيوم ببراثنه. ونظر الدُلفين باهتمام إلى الكلب. فالتصق باسيا بحافة القارب وتجمّد في مكانه.

عضَّ الفتى على شفته السفلى الممطوطة ببسمة، وحاول أن يحتفظ في ذاكرته بصورة بِيْزو لكي يعترف بذلك من غير شكٍّ في المرة القادمة. كان يمتد من عيني الدُلفين إلى زعنفتيه الجانبيتين خطّان أسوَدان، وكانت تتلاقى على جبينه ظلالٌ رمادية قاتمة على شكلِ مثلّث؛ لقد كان سميناً جداً وكأنه منتفخ.

عكسَ جلده الناعم المتين أشعةَ الشمس بكثير من البريق. وتراءى في فمه المفتوح قليلاً شبهُ حفرة ملساء، كأنها مركّبة صناعياً، فيها أسنان صغيرة بينها فراغات واسعة متساوية.

لوَّح الدُلفين برأسه فانثنى الفتى إلى الوراء، إلّا أن الرذاذ، رغم ذلك، بلل قبّعته. وتمايل القارب بشدة، وقفز باسيا مرعوباً. ولمّا لم يكن هناك مجال للهرب اضطُرَّ للاختباء تحت مقعد في مؤخرة القارب، وراء محرّكٍ موضوع في كيسٍ مشمّع.

- ماذا أصابك؟ - سأله حمزة وهو يمرر يده على وجهه. - هل هكذا يتصرف القبطان وقت العاصفة؟

لم يردّ الكلب، فيما تابع بِيْزو رشّ الماء، مُصدراً صفيراً قصيراً.

- هذا يعني أن لك صوتاً، إذَن! - فرِح حمزة. - فلماذا كنت صامتاً؟

وشرع الفتى يرشق الدُلفين بالماء بيديه الاثنتين ضاحكاً غيرَ مبالٍ بثيابه. فكان الدُلفين يصدّ هجماته بأنفه متلقياً الماء بفمٍ مفتوح. وأهمل داود الصيد، وابتسم لما يجري، ولكنه سرعان ما عبس حين رأى قاربَي الأخوَين تصوغبا يقتربان نحوه من بعيد.

بات اللعب يزداد صخباً وابتلالاً. وأخذ الدُلفين يغوص تحت القارب ويخرج من جهات مختلفة، يرشّ الماء، ثم يختبيء، ثم يخرج، وهكذا...

- هل تريد أن أضيّفك؟ - سأله حمزة وهو يرفع أمامه سمكة. - آ؟ هل تريد؟

ابتعد الدُلفين. وحين عاد واقترب رشَّ الإنسانَ من جديد، ونظر إلى ذيل السمكة الذي يتمايل، فألقى حمزة السمكة في الماء. قفز بِيْزو خلفها فوضعها على أنفه وخرج من تحت الماء، وبرَميةٍ دقيقة

أعادها إلى القارب. وتكرر ذلك عدة مرات.

- لا أفهم! ما الذي تأكله إذا كانت سمكة البوري لا ترضيك؟

- قد تكون الدلافين تتغذّى على النباتات البحرية؟ - تساءل داود.

- نعم...

- إي! - هتف مَزاوتش.

كان حمزة يأمل أن يمرّ الأخوان تصوغبا فلا يسلّمان. لم يكن راغباً بالسلام عليهما بالكلام، فاكتفى برفع يده لهما مع إيماءة برأسه.

- وماذا تعملان هنا؟ - سأله مَزاوتش. - ظننت أن... انظر، ها هو! طبعاً... يا فيليكس! انظر! - صرخ مخاطباً أخاه الذي اقترب.

ألقى حمزة السمكة مرة أخرى راغباً في أن يرى تصوغبا أنه تمكّن من عقد صداقة مع دلفين. وكما هي عادته رفع بِيْزو سمكة البوري على أنفه، ثم دنا من القارب وقذف بها لحمزة فتلقّاها وهي بعدُ في الهواء.

ضحك مَزاوتش من هذا المشهد. إلا أنه عاد وتجهّم. فافترَّت شفتا حمزة عن بسمة ساخرة إزاء هذا التحول. هل هو «الحسَد؟»

- ماذا تفعل، هل جننت؟ - بسط مَزاوتش يده، وضرب بها جبينه، ثم تسْتَس. - وتطعم الدُلفين سمكاً! هل سيكون والدك مسروراً إذا عرف بذلك؟ أم أنه هو أيضاً يفعل الشيء نفسه؟

- لا يحقّ لك أن تتكلم عن عائلتي. - اعترض حمزة. ـ لك عائلة، انشغل بها.

ألقى داود الصنارة من يده ووقف. غير أنه ظل، مثل فيليكس، يستمع صامتاً. لم يحبذا التدخل في كلام الأصغر سناً. وبدأ الدُلفين في هذه الأثناء يرشّ الماء، ولم يكن ذلك في الوقت المناسب. فقهقه مَزاوتش وهو يرى كيف يتطاير الرّذاذ صوب كاغْوَا:

- إي! إنه يسخر منك!

- إنه يلعب معي. هذا يعجبه.

- وصرتَ تعرف ما الذي يعجبه؟ إنك جننت، فعلاً! احذرْ... فبينما يلاعبك هذا المحتال سيمزّق رفاقه شباككم ويأكلون أسماككم. وأنتما تستحقّان ذلك! بعدئذ ستفهم أنك تصرّفت بغباء. أو أنك لن تفهم...

- بكلِّ بساطة، أنت تحسدني! - قال حمزة ساخراً.

كانا يتكلمان واقفَين، ولا بد لهما أن ينحنيا ويتمايلا فوق الأمواج الضعيفة المتتالية لتهدئة القارب والحيلولةِ من دون غرقه. فبدا وكأنهما يتراقصان وهما يتكلمان. وتوقف بِيْزو عن رشق الماء، وراح الآن يسبح بين القاربين، ينظر إلى هذين الغريبين، ويغوص.

اشتدت حرارة الشمس. وعلى بُعد كيلومتر واحد إلى الجنوب كان يعبر مركبان، وفاليرا في واحد منهما. كانت طيور النورس تحلّق مثل غيمة فوق خط زبدٍ لا تخلّفه المراكب، صاخبٍ، يتبدّل شكله.

- أحسدك؟ أنت؟ وعلى أي شيء؟!

- على الدُلفين الذي عندي، بينما ليس عندك ولا عند الآخرين إلا كلب، أو قطة، ودودتان أيضاً في حاكورة بيتك. ليس عندك صديق كهذا، ولن يكون.

لزم مَزاوتش الصمت واكتفى بأن نفض يده.

- أليس كذلك، يا بِيْزو؟ - ابتسم حمزة للدلفين الذي كان يسبح مقترباً منه، وألقى إليه بالسمكة المدعوكة بسبب اللعب.

- بِيْزو؟! - صرخ مَزاوتش، مُطلقاً ضحكة عالية جداً، وسأل: - أنت من أسميته هكذا؟

- نعم.

- كل شيء واضح. فلنذهبْ، يا فيليكس! يقولون إن الجنون فنون. - تابع داود صيد السمك. وسرعان ما نسيَ حمزة صوت تصوغبا الكريه، وعاد إلى اللعب مع بِيْزو. يضحك ويتراشق بالماء. وتمزقت سمكة البوري ثم غرقت.

خفّ الهواء حتى كاد يخمد.

عندما قرّر الأخوان كاغْوَا أن يسبحا نحو الشِّباك رفع حمزة المجداف من القاع، فخاف الدُلفين وغطس بلمح البصر، ثم ظهر على مقربة منه ورفض الاقتراب.

- ماذا أصابك؟ - ضحك حمزة. - هذا مجداف! انظر، مازال عندي مجداف آخر، وعند داود أيضاً مجدافان!

راح بِيْزو يعوم غير بعيد عنهما. كان يغوص حيناً، ثم يرفع رأسه بعد نصف دقيقة، وبعد ذلك يعود. كان الشقيقان يريان أحياناً شيئاً رمادياً يعبر تحت القارب مثل تيار قوي جداً. ولكن لم تكن تظهر أمواج، بل ولم يكن هناك حتى اهتزاز صغير.

راح الدُلفين يراقب الصيادَين وهما يسحبان الشبكة، ويُخرجان السمك من حلقاتها. وخشيَ داود من أن يسبب إزعاجاً، غير أن الدُلفين كان دقيقاً في حركاته.

بعد ساعة ودّع حمزة صديقَه البحري، وقفز إلى الشاطئ.

في الأيام التالية لم ينقطع بِيْزو عن مصاحبة كاغْوَا إلى الصيد، يلعب معه ويلهو. كان يبتعد عندما تقترب المراكب والزوارق السياحية، ثم يعود حتماً. وكان حمزة سعيداً.

دبَّ الدفء في الربيع فأزهرت شجيرات الكيوي، وكشفت أغصانها المتعرّجة، الممدودة على السياج عن أزهار متفرقة تتألف واحدتها من ست بتلات بيضاء، تتفرع من قلبها ضفائر خيوط ملوَّنة كثيرة.

كان حمزة يحب الالتفاف حول معمل السمك ليتنزّه على امتداد الشاطئ. فبعد اثنين من الكيلومترات من هنا كانت تبدأ قرية بيتسوندا. وحين يبلغ حدود هذه القرية يعود أدراجه. كانت أشجار الصنوبر الموجودة قُبالة الشاطئ عالية. بعضها كان منحنياً بأشكال غريبة جعلتها تبدو مثل معوَّقي الحرب. ولم يكن بعضها الآخر يحتفظ على جذوعه إلّا ببقايا فروع يابسة، ولكن هذه الصنوبرات كانت تتّشح بلونها الأخضر الذي يزداد اتساعاً حتى ذروتها. وكانت هناك أيضاً أشجار صنوبر تسبِل أغصانها الكثيرة المتشابكة فتنحني حتى تصل قريباً من الأرض، وتجعل المرور تحتها يتطلب الانحناء. وكانت تحيط بهذا الحرش من الصنوبر شجيرات كثيفة، متشابكة من الصفصاف والغار.

بحلول شهر مايو كان الهدوء ينعدم هناك ويعلو صخب البحر والأشجار. وعلاوة على ذلك كان أزيز الجراد والجنادب يصمّ الآذان. وكان الإنصات الطويل يتيح إمكان معرفة بعض الأصوات، بينها ما يَصدر مبحوحاً متقطعاً وسريعاً، وما يزقزق أو يطلق صريراً، وكأن مئاتٍ من الإوزّ الكريه تتبادل شتائم عجولةً من أنوفها. فكانت هذه الضوضاء التي لا تصمت تتّحد في ضجةٍ واحدة من القهقهة والنقيق.

- يا حمزة! - نادته الجدّة تينا.

خرج الفتى من البيت. كانت الجدّة وهيبلا والضيفات، مارينا وحفيظة وتكادوَا، جالساتٍ على الشرفة يشربن القهوة. وبعد أن شربنْها رحنَ يخضخضن ثُفْل القهوة في الفنجان ويقلبنه على لوح خشبي، ثم يتركنه إلى أن يقطر ماؤه من أجل التبصير، حيث يقرأن في خطوط البن المتشابكة ما ينتظرهنّ في المستقبل.

- نعم، يا جدّتي، - ردَّ حمزة بضجر.

- أريد أن أتحدث معك منذ فترة. ودائماً أنسى. اجلِسْ. - وأشارت الجدّة تينا لحفيدها إلى كرسي فارغ.

- ميستان! - - ذهبت هيبلا كي تطعم القط. - أراح واي[7]، يا ميتسان! تعال إلى هنا! ميستان! -وصبّت له في صحنه بقايا طعام الغداء.

رفع القط ذيله وأطلق مواءه مسروراً، وجاء من تحت شجرة الجميز راكضاً. وفي طريقه ضغط بجنبه على التنورة الزرقاء الضيقة التي تلبسها مارينا، وقبل أن ينحني برأسه على الصحن راح يتقلّب بين ساقَي هيبلا.

- عمّ تريدين أن تكلّميني، يا جدّتي؟

- عن الدُلفين. لقد مضى عليك أسبوع وأنت معه...

- نعم... وهل في هذا ما يعيب؟

- لا أعرف. لم يحدث في قريتنا شيء كهذا من قبل، ولا في القرى الأخرى كذلك. قد لا يكون هذا معيباً، ولكن! - كانت الجدّة تينا ترافق كل جملة بثني يدها اليمنى أو بسطها. بينما كانت يدها اليسرى ملقاة على ركبتها. فإذا ما رفعتْ يسراها أيضاً كان ذلك يعني حديثاً طويلاً وصعباً. - لن أقول لك إلا ما قالته لي أمّي: «داعبِ الكلب، لكن لا تنسَ العصا!». فالحيوان، وخاصة من هذا النوع، يمكن أن يكون له عاداته... الغريبة أيضاً. إنني لم أحاول أبداً أن أخيفك! أليس صحيحاً؟

- صحيح.

- والآن أيضاً لا أخيفك. إنني، يا عيوني، أنصحك ولا أُلقي عليك الأوامر. فأنت نفسك صبيّ ذكي. لقد ناديتك لتستمع إلى مارينا. احكي له يا مارينا.

- طيِّب... لا تأخذْك الظنون، - ابتسمت مارينا. - كلّ ما في الأمر أني سمعت قبل مدة قصيرة خبراً لا يسرّ. وكل الأخبار من عائلة تصوغبا. والأرجح أنه من مَزاوتش. فقد بدأ يسخر منك، ويقول لأصدقائه إنك تظن نفسك ساصْريكفا[8] وقد وجدت لنفسك هذا الحيوان البحري بِيْزو فأصابك الغرور...

- ليس هذا خطيراً بعد! - تدخلت الجدّة تينا. - دعْهم يثرثرون! دائماً في المستنقعات الكبيرة تكثر الضفادع. المهمّ أن تنتبه لكيلا تغدو أضحوكة الجميع. الناس حتى الآن لا يصدقون مَزاوتش.

سيأتون ويسألونك. عليك أن تعطيهم الجواب الصحيح!

نهض حمزة بهدوء فشكر الجدّة على نصائحها، ثم صعد إلى غرفته وهو يشعر بانقباض وتوتّر.

- نعم... - نطق داود الذي كان يقف بالقرب من النافذة. - لقد سمعت كل شيء. ها هو وجهك يتضرَّج حمرة!

لم يُجب حمزة. استلقى على سريره وأدار وجهه إلى الجدار. لقد أزعجه كلام مَزاوتش، وفكر بالثأر منه. بالنهوض والذهاب إليه في باحة داره. ليقول له، من دون أن يلقي عليه السلام، إن تصرُّفه أسوأ من تصرُّف جقَلٍ يكشّر عن أنيابه أمام عدوّه ويحدّق في عينيه، بينما يطلق مَزاوتش للسانه العنان بالثرثرة مختبئاً وراء الباب مثل فأر في زاوية قبوه. وشدّ حمزة قَبضتيه، ثم هدأ بعد قليل وقرّر أن ما جرى محضُ غباء. المهم أن بِيْزو وافق على صداقته. وإلا لَما كان للدلفين أن يتصرّف على هذا النحو، وأن يثرثر، بل لكان اكتفى بأن يبلّله بالماء.

خطرت لحمزة هذه الفكرة فابتسم وهمس. «ساصْريكفا؟ ولِمَ لا!».

نابَ داود عن والده في المركِب. ومضى فاليرا، بدوره إلى صيد السمك برفقة حمزة الذي جعله تهوُّرُ الصبا يرتدي قبّعة قديمة عريضةَ الحوافّ، عثر عليها خلف السرير في غرفة والديه. كان فاليرا يسخر من ابنه مازحاً عندما سقطت القبعة عن رأسه في الماء وهو ينحني من القارب نحو الشبكة. ردّ حمزة بضحكة راضية. كانت الحياة تبدو بديعة وتستحقّ الفرح في هذا الدفءِ الذي تبعثه الشمس، وهذا النسيمِ العليل، والخضرةِ الوضّاءة على الشاطئ.

كان ثمة أربعة قوارب أخرى في الخليج أربعة قوارب أخرى لصيد السمك. وكان الكلب باسيا ينبح ويركض على الشاطئ، فقد تأخّر اليومَ عن موعد الإقلاع، وها هو الآن يوبّخ أصحابه لأنهم لم ينتظروا قبطانهم.

وسرعان ما ظهر بِيْزو. لقد خرج من تحت الماء على بُعد ثلاثين متراً إلى الشرق عنّا، ثم عاد وظهر من الجهة الغربية. وهكذا راح يسبح تحت القوارب ويعاود الظهور من مختلف الجهات، وكلَّ مرة يزداد قرباً. ظلّ فاليرا صامتاً، إنه نادراً ما يتكلم مع ابنه عن الدُلفين، حتى ظُنَّ أنه لا يلاحظ شيئاً.

ألقى حمزة قبّعته وابتسم. كانت يداه متوترتان وهو يجذب المجدافين، وقد تعرَّق ظهره، ووسّعت الأنفاسُ المتلاحقة صدرَه. أراد أن يجدّف بقوة أكبر وبجهدٍ أشدّ. ويجب عليه أن يشحذ كلّ ما اجتمع في عضلاته من قوة لكي يشعر بالقدرة والحيوية في لحظة تعبه الآخذ بالنضوج.

سبق حمزةُ أباه، وكان الآن يشق الماء وحدَه مع بِيْزو الذي كان واضحاً في الماء الرقراق بأي سرعة يغوص ويُخرج ذيله، وكيف تتحرك زعنفتاه على صدره. وبعد أن تعرّق الفتى وسخن جسمه أراد أن يسبح ويغتسل.

توقّفَ حمزة عن التجديف ونهض.

- وماذا، أيها الدُلفين، هل تسمح لي؟ - خاطب حمزة الدُلفين.

ردّ عليه بِيْزو مغمغماً بشيء غريب وسريع.

- يا للصوت الذي لك، أيها الأخ! أرجو أن يكون صوت عروسي أطيبَ وقْعاً... انظرْ ماذا معي!

رفع حمزة قبّعته من القاع، ولكن كان عليه في الحال أن يحتمي من عدد كبير من الرشقات، ثم اندفع بِيْزو جانباً واختفى تحت الماء.

- ماذا فعلتَ؟ لعلَّ القبّعة لم تعجبْك؟ - تعجّب حمزة.

عاد بِيْزو، فتجمّد على سطح الماء، كاشفاً زعنفة ظهره فقط، وينظر إلى صديقه بعينين شبه مغمَضتين. وقف حمزة لا يتحرك، ثم ضحك ساخراً ولوّح بقبعته، فاختفى بِيْزو. وتكرر ذلك مرّتين.

- أجل... يبدو أن القبعة شنيعة حقاً، - نطق الفتى.

- هذا ما قاله لك الدُلفين؟ - سأله أبوه وهو يقترب منه سباحةً.

- نعم.

- هذا يعني أن سمكتك هذه ليست غبيَّة، - ابتسم فاليرا، وهو يشعل سيجارة. - لو كان يدخن أيضاً لوجدْنا ما يمكن أن نتحدث عنه معه.

- طبعاً! - هتف حمزة. ثم لفّ القبّعة ورمى بها بعيداً، وألقى بنفسه في الماء وهو يضحك.

وفي حضور والده سمح لنفسه بسباحة قصيرة فقط، ثم أسرع بالصعود إلى القارب. كان قد حان الوقت لسحب الشبكة. لم يرغب الدُلفين بالسباحة مع الفتى وظل بعيداً.

- نعم... - قالت الجدّة تينا في المساء التالي. - تعرفين، يا حبيبتي، أني كنت أحبّ أبي ولا ألومه على شيء. ما الذي فعله؟ تلك كانت العادات.

أومأت مارينا برأسها علامة الموافقة. وتنهّدت حفيظة وهي تلملم المكعّباتِ المشويّةَ الأخيرة من مِعلاق الخروف.

- نعم، يا بنات، كان عندنا في ذلك الزمن قوانين غريبة! - رفعت الجدّة تينا يدها اليمنى، فيما كانت تدلّك باليسرى ركبتها المريضة. - ولكني لا ألقي اللوم على أحد. لو لم يمنعني والدي لكان عندي مزيد من الأولاد. انظرْن! عند أخواتي خمسة أولاد أو ستة، أما أنا فليس لي إلا فاليرا. من حسن الحظ أن أنطون أصرّ. فوالدي لم يكن يريد له أن ينضمّ إلى عائلتنا! بل كان يرفض جميع الخطّاب. يومها... كانت السلطة السوفييتية في بدايتها. كانت القوانين صارمة: أن يتمشّى في ذلك الزمن ولدٌ وبنتٌ معاً ببساطة، بل وأن يتكلّما عن شيء ما؟! أو - و-و! غير معقول! لم يحدث ذلك! - بسطت الجدّة تينا كفها اليمنى، وهزت رأسها.

كثيراً ما كانت تحكي عن والدها والعادات القديمة. كان الجميع يعرفون شكواها، ولكنهم لا يقاطعونها، بل يستمعون إليها.

وضع حمزة رأسه على الطاولة وراح يراقب دجاجة وهي تمرّ خلسة أمام الساعة التركية فيما الأخريات تنظرن إليها من جهة بيتُ الكلب الذي لم يولِ اهتماماً لما كان يجري، فقد كان نائماً. وكانت القَرِقة[9] تمشي بهدوء، حذِرة من أن تثير بين النباتات صوت أي احتكاك. كان رأسها، كعادته دائماً، لا يهدأ، تتلفت هنا وهناك، تارة بالعين اليمنى، وتارة أخرى بالعين اليسرى. تنقبض قدمها على الأرض، ثم تعود وتستقيم ببطء وهي تهبط بها على الأرض. أمامها كانت مارينا وفي يدها كسرة خبز. كانت الدجاجة تشق طريقها على مهل، لكن بثقة. كانت مطمئنة وهي تمر بالقرب من قدمَي حفيظة، عندما انقلب كأسٌ فارغ على الطاولة فقرفصت قليلاً وازدادت مشيتها بطئاً. ابتسم حمزة، كانت الدجاجات الأخريات تراقب صديقتها القَرِقة بصمت وهي تتسلل مقتربة من مارينا صاحبة التنورة الزرقاء، التي كانت بدورها منسجمة في الحديث، رفعت يدها لتقول شيئاً، ثمّ تراجعت وأعادتها إلى ركبتها.

- إي! - صرخت الجدّة تينا عندما رأت الدجاجة راقدة تحت الطاولة. فرفعت الدجاجة رأسها عالياً، وكأنها أدركت أنه اكتُشِف أمرِها، فخطفت بمنقارها كسرة الخبز بقوّة مُلحقةً الأذى بأصبع قدم مارينا، وفي الحال أبعدت ما بين ساقيها المثنيتين واندفعت بعيداً عن الطاولة صوب أشجار الأكيدنيا. انتفضت مارينا من المفاجأة وحركت يدها. فاضطربت الدجاجات الأخريات، وقوقأن رافعات أجنحتها واندفعت راكضات خلف رفيقتها. واستيقظ الكلب باسيا الذي داس على ذيله عددٌ من الدجاجات، فغمغم بعواءٍ متقطّع، ثم عاد إلى النوم. ضحك حمزة والجدّة تينا وهما يراقبان ما يحدث.

- يالها من لِّصة!

تشبّثت القَرِقة بكسرة الخبز، وركضت طويلاً في الباحة هرباً ممَّن تلاحقها تحت شجرة الأكيدنيا إلى شجيرات الفيجوا، ثم إلى غرفة الحمّام.

نادراً ما كان حمزة يُلقي بسمك البوري إلى الدُلفين الذي ظل، كما من قبلُ، يستخدمها للّعب فقط. كان الفتى يأخذ السمكة ويبيّن له أنها يجب أن تؤكل، لا أن تمزّق، فيمدّ شفتيه إلى حراشفها المبللة متظاهراً بأنه يمضغها. وكان بِيْزو يتابع بنظره هذا الفعل الغريب الذي يقوم به الإنسان.

- حقاً... إنك ضيف رديء، - يتنهّد حمزة.

وذات مرة فتح الدُلفين الكبير شِدْقه، وهو يقفز، فابتلع سمكة البوري عن غير قصد، وتعجّب أيّما تعجّب. فنظر حائراً إلى الإنسان، ثم راح يحرك خطمه في الماء ويثب ليتأكد إن كانت السمكة قد غرقت أم لا. ومنذ ذلك الحين شرع بِيْزو يبتلع ما يقدَّم له من سمك البوري، ولكن بعد أن يمزِّق السمكة ويغطِّسها ويقذفها.

وفي أحد الأيام التقط حمزة غصناً عائماً في البحر ورماه جانباً، وإذا بالدُلفين بِيْزو، الذي كان يلعب غير بعيد عنه، يُسرع فيلتقط الغصن.

- أين ذهبت! - صرخ حمزة. - هذا ليس بسمكة! توقّفْ!

لم يلبث الدُلفين أن دسّ الغصن في فمه وعاد.

- انظر، يا داود! انظر ماذا يفعل! داود!

وانخرط الشقيقان كاغْوَا بالضحك.

- آه، يا كلب! - مدّ حمزة يده إلى الغصن فلامست الدُلفين بالكاد وأفزعته. وهنا خفق قلب الفتى ودقّ بقوة. فقد كان جلد الدُلفين، كما من قبلُ، مشدوداً، أملسَ، مثلما كان في ذلك اليوم على الشاطئ. عض حمزة على شفته السفلى ومدّ كفّه لبِيْزو، ثم انحنى ببطء، وما لبث أن أخذ يمسّد خطم الدُلفين وهو يبتسم وينادي أخاه ليرى ما يجري.

بعدئذ أخذت اللعبة تتكرر. راح بِيْزو يشقّ سطح الماء الهادئ وهو يسبح نحو الغصن فيعيده وينال جزاء ذلك مداعباتٍ حيناً، وسمكة أحياناً أخرى. فيما باسيا القابع في الطرف الخلفي من القارب يراقب بصمتٍ ما يفعله صاحبه.

كان حمزة فخوراً بالدُلفين، يتكلم عنه في البيت كثيراً. لم يكن داود ينصت إليه، مفضِّلاً أن يذهب للنوم أو يصلح النافذة. وكان فاليرا يكتفي بهز رأسه، فيما تتأوّه هيبلا وتحذِّر ابنها من أن الدُلفين بِيْزو سوف يلتهمه ذات يوم «ولا قدر الله قد يلتهمه ولا يبقي منه إلا نصفُ رِجله!». لكن زاوور تْشكادوَا، ابن حفيظة وقرين حمزة في العمر، كان ينصت جيداً ولا يقاطع. أحياناً كان هذان الفتيان يستأذنان فاليرا ويذهبان معاً لاصطياد السمك. وذات مرة قام حمزة باصطحاب زاوور ليرى الدُلفين، ولكنه لم يسمح له باللعب معه. كان للفتى زاوور وجهٌ نحيلٌ شاحبٌ وشعرٌ طويلٌ، وبسمةٌ رقيقة لا تكاد تُلحَظ، ولم يكن يأخذ على خاطره لأن فاليرا لا يسمح له بالاقتراب من بِيْزو.

أخذ الفتيان يسليان بِيْزو، فأتخموه في مرة من المرّات بعشر سمكات من سمك البوري الصغير. وجرياً على عادته السيئة كان الدُلفين يلعب بالسمكة ولا يبتلعها إلا بعد أن يَمِل من اللعب. وكانت

قطع السمك التي تطفو على سطح الماء تجتذب طيور النورس. يختبئ بِيْزو، فتقترب النوارس من الشاطئ مسرورة باللّعبة، لا تخاف من الناس. يراقب حمزة وزاوور الموقف، وهما يكتمان ضحكهما، يراقبان كيف ينبثق بِيْزو من تحت الماء خلف الطيور الكثيرة الزعيق، فاتحاً فمه. يتحرك ببطء، محاولاً الحفاظ على هدوء الماء، وبدا جليّاً أنه يأمل أن يقبض ولو على طيرٍ واحد من ذيله الأبيض المنقوش على نحوٍ لافت... وما إن يستعدُّ للانقضاض حتى تحلِّق تلك الطيور هاربة إثر اكتشافها وجود غريب. فتحوم قليلاً ثم تعود وكأنها معتادة على مثل هذه الوقاحة من جانب الدلافين.

أكثرُ ما كان يفعله هو السباحة ببطء حول القارب، إلا أنه كان يتشجّع أحياناً فيتنقّل بين جهة وأخرى ثم ينبثق من الماء مثل قوس، وأحياناً كان يثِب بقدْرٍ من القوّة والارتفاع، فيحبس حمزة أنفاسه، ويشعر كأن آلاف الإبر تخز قلبه من شدة الذهول.

لم يكن الفتى الآن يخاف أن يداعب رأس الدُلفين بيديه، أو أن يلامس أسنانه الحادة، بل كان يضع له السمكة بين أسنانه بنفسه، أو على طرف أنفه الممتد أمامه مثل عنق الزجاجة.

كان الربيع في أواخره. لقد أزهر الدرّاق في بستان كاغْوَا، وكأن أحداً قد شكَّ عن قصدٍ على الأغصان الرفيعة براعم وردية رقيقة. وانتعشت أشجار الليمون بين الجمّيزة والشرفة، فتفتَّحت أزهارها الصغيرة ببتلاتها البيضاء الملتوية وبالنتوء المتين في وسطها. واخضر التين عند طوران، شقيقِ هيبلا، وحان وقت قطف أوراقه وحفظها.

زرعت عائلة كاغْوَا حاكورتها بالملفوف، وانتقلت إلى زراعة البطاطا. كان فاليرا يحفر الأرض، فتعرّق كثيراً وفكّ أزرار قميصه. بينما كان حمزة يغرس الشتلات في الحُفَر الصغيرة وهو يتلفّت أحياناً إلى بروز بطن والده متسائلاً في سرّه إن كان بطنه أيضاً سيكون بهذا البروز عندما يبلغ الستين من عمره. ومن الشرفة كانت الجدّة تينا تنظر إليهم وهم يشتغلون، وبصوت خفيض تشكو ممّا في رِجليها من ألم.

باتت الأيام أشدَّ حرارة، ولكن عائلة كاغْوَا كانت تعرف أن ماء البحر لن يدفأ قبل حلول يوليو.

في نهاية مايو، بعد نشر الشبكتَين، والتخلّي عن الصيد بالصنارة، استلقى حمزة في قاع القارب مستديراً بكتفيه وصدره نحو الشمس. وحين ترامى إلى سمْعه دفْقُ الماء أطلّ برأسه، فحيّا بِيْزو وخطر له في الحال أنه حتى الآن لم يسبح معه، وكان بإمكانهما أن يبتكرا في الماء كثيراً من الألعاب الجديدة. ابتسم حمزة وأخبر داود بذلك، فهزّ رأسه.

- ما رأيك؟، هل تستقبلني؟ - سأل الفتى الدُلفين، ثم استقام وخلع جزمته وبنطاله، وافترَّت شفتاه عن بسمة صغيرة، وقفز إلى الماء.

أربكَ الماءُ والبرد جسمَه الساخن، وتمايل القارب بقوة جعلت باسيا يكاد يسقط منه، فتشبّـثت مخالبه بالمشمّع واختبأ تحت المقعد في آخر القارب. وأهمل داود الصيدَ ونظر إلى أخيه.

خرج حمزة من تحت الماء ومرّر كفّه على وجهه وشعره، ثم تنفّس من جديد وعاد فغطس. وشرع يسبح وهو يدفع الماء برجليه ويجدّف بيديه. ثم رفع رأسه من الماء وقال متعجّباً:

- داود! هناك تصدّعٌ في البحر!

- تصدّع؟

- نعم... ولكنك لا تسمعه. أمَّا هنا... - وغطس حمزة لوقت قصير. - هنا تسمعه. إنها طقطقات.

- ربما خيرٌ لك أن تعود إلى القارب؟

- كلا!

- حمزة! إيّاك أن تجازف عبثاً. تذكّرْ ما قالته... - ونهض داود عابس الوجه.

- أذكرُ! - هتف الفتى وأخذ نَفَساً، ثم نفخ خدّيه وغطس في الماء.

يتلألأ البحر اللازوردي الزرقة ممتزجاً مع الشمس، فلا تعود الرؤية واضحة لأبعد من مترين. كوّر حمزة عينيه، أدرك أنه أعزل. لا يوجد قاعٌ هناك، ولا بُدَّ من السباحة حتى يصل إلى القارب. ليس حوله إلا الظلام. لقد عقد الفتى صداقة مع بِيْزو، وكثيراً ما كان يلتقي به، أما الآن فقد بات يشكّ بحسن نواياه. إنه حيوان مفترس. «كلّا، هذه سخافات. لن يُلحق بي أذىً! إنّي أطعمه. ونحن نلعب معاً...». كان حمزة يبحث عن حُجج تجعله يطْمئنّ، غير أن الخوف كان يلدغه من الداخل، من أعماقه السحيقة المظلمة.

خرج حمزة من تحت الماء. استرجع أنفاسه. ثم غاص من جديد. لم يكن يريد للدلفين أن يقترب منه وهو لا يراه. كان عليه أن يرى كل شيء. تسارعت دقات قلبه، وأمام ناظريه كان الرمل الناعم الملوّن يشعّ. راح حمزة يتلفّت حوله. ثم هذه التصدُّعات... قبل قليل كانت نادرة، أما الآن فقد تزايدت وجعلت الخوفَ أكثر ثقلاً: «كان يجب أن أتسلّح بسكّين. لو تسلّحتُ لَما صرت... على أيّ حال... يعني... فهو مفترِس».

كان بمقدور حمزة أن يعود إلى القارب، ولكنه ما كان يريد أن يسخر أحدٌ منه كجبان. وراح يواسي نفسه بأمل ضعيف في أن يقوم بِيْزو بتوسيع المسافة بينهما. باتت التصدّعات تتزايد ويعلو صداها إلى أن انتظمت مثل خردقٍ رتيب مخيف. ثم صمتت فجأة. وظنّ حمزة أنه أصبح الآن قادراً على التراجع، فيشكو لأخيه كم هو جبانٌ هذا الدُلفين، ثم يتنهّد ويصعد إلى القارب.

ولكن الدُلفين ظهر قريباً منه، وقد دفعته موجة غامضة من أعماق المياه العمياء. يا لَلرعب. وشعر بالهواء الساخن يندفع إلى صدره. فارتجف حمزة وخطر له أن يوجِّه ضربة لبِيْزو، وتجمد في مكانه. كان لا بدّ له أن يعود إلى سطح الماء ليتنفّس جُرعة من الهواء المنعش، فلم يعد يطيق صبراً. وكان الدُلفين يراقب الإنسان. كان أنفه طويلاً، ترتسم على جانبيه بسمة لا تغيب. وكان ذيله

مسبلاً، ويظهر الآن كيف يتبدَّل لونُه الرمادي ليصبح بلون بطنه الأبيض. ثمة تجاعيد قاتمة والتهابات صغيرة على جلده. وخُيِّل إليه أن عينَي الدُلفين في الماء سوداوان وصغيرتان. زعنفتاه الجانبيتان لا تتحرّكان. مالَ بِيْزو جانباً، ثم انقلب تماماً. وفي اللحظة التالية غاص عميقاً، واختفى. وحجب ظلامُ البحر الدُلفينَ بسرعة جعلت حمزة يرتجف من جديد، فعام مسرعاً، بأنفاس متلاحقة.

- كيف، هل تكلمتَ معه؟ - صاح داود.

لم يردّ الفتى، وغاص من جديد. كان خائفاً من أن يعضَّ الدُلفين رِجله. وعاد بِيْزو هذه المرة من الجهة المعاكسة، فلوّح بذيله وابتعد.

كان الدُلفين يدور، وبحماسةٍ يلوِّح بأنفه، همُّه أن يخدع حمزة فيباغته من وراء ظهره. ذلك هو لبّ اللعبة. وأخيراً اطمأنّ الفتى، وحلَّ المرح محلّ الخوف.

داعب حمزةُ الدُلفين، وخطر له أن يعانقه، ولكنه لم يتجاسر. فحاول أن يكرر حركاته، وراح يطلق رشقاتِ ماء من فمه.

بالقرب من قارب داود كان يغطس ويعود إلى الظهور إنسان ودلفين.

بِيْزو يهز رأسه فاتحاً فمه، وحمزةُ يرشقه بالماء.

- كنتَ تقول إنه متوحِّش، مفترِس. سيعضّك! - صاح الفتى.

- لم أقل إنه سيعضّك.

- بل قلتَ ذلك.

- قلت! اغطسْ وتعالَ إلينا! ستجد ما يعجبك.

- لقد أخفتُما كلَّ من حولي من السمك، ثم يسمُّون هذا صيداً، - قال داود عابساً.

- تعال! - فتح حمزة ذراعيه واندفع صوب الدُلفين الذي غطس في الماء ثم ظهر من الجهة الأخرى. - ما أشطرَك! - حاول حمزة من جديد أن تصل يدُه إليه، ولكنه لم ينجح.

- لقد جننتَ تماماً. بسببك لم أصطد شيئاً. - تابع داود غمغمته وهو يخلع جزمته وبنطاله وقميصه. ثم نطق بعض كلمات أخرى وألقى بنفسه في الماء.

بات الآن في الماء ثلاثةٌ يلهون. كلٌّ منهم سعيد على طريقته.

وحدَه باسيا كان ينظر إلى ما يجري بالقرب من القارب ضجِراً، متعجّباً.

# الفصل الثاني
# الصيف



كان المطبخ في باحة بيت عائلة كاغْوَا بسيطاً. أحد جدرانه لصيق بالبيت، مصنوع من ألواح أشجار الكستناء، فتحاته ضيقة. وكانت أرض المطبخ ترابية لا يغطيها شيء. وعلى سطحه الخشبي كان ثمة علّيّة صغيرة يقود إليها سلّم، وتُحفظ فيها المواد الغذائية المجفّفة والصوف. وفي وسط المطبخ موقد ضخم، وطاولة حديدية لشيّ السمك، وأخرى من قرميدٍ لها ثلاث أرجل وعليها قِدْر عتيقة لطبخ المخلوطة من دقيق الذرة الصفراء. كما كانت تتدلّى من سقفه سلسلة تُعلّق في حلقاتها القدور الأصغر حجماً والمخصصة لطهو المخلوطة بالحليب، وأنواع الحَساء. وعلاوة على ذلك، كان مثبَّتاً تحت السقف شبَكٌ مجدولٌ، واسعٌ توضع عليه المنتجات المدخَّنة من أجبانٍ وسمك أو لحمِ الغنم. وعلى الجدران أكاليلُ مثقلة بالفُليفلة الحمراء، والبصل، والمكانس، ومقلاةٌ حديدية، وطناجر. وفوق الفجوة التي تُفضي إلى الشرفة كانت معلّقةً قرونُ وعْلٍ. وفوق الفجوة الأخرى التي تفضي إلى المستودع كانت مغروسةً أنيابُ جقَلٍ، وجلدُ خنزير بري عتيق حال لونُه.

كان ذلك مطبخاً، ولكنهم ينامون فيه. يذكر فاليرا كيف كانوا يتركونه هناك في طفولته، بالقرب من النار التي يطفئونها بقطعة خشب. يذكر أيضاً كيف كان يأكل مخلوطةَ دقيق الذرة الصفراء بأصابعه مع الأدجيكا[10]، والجبنِ المدخّن، ولحمِ العجل. يومها، في السنوات التي سبقت الحرب، كانت الصحون شيئاً نادراً. والآن لا ينام في المطبخ من كلّ عائلة كاغْوَا إلا الجَدّة تينا. كانت تقول إن النوم في الغرف يسبِّب لها آلاماً في الرأس، ويحول من دون تناثرِ أحلامها في الهواء.

كما كانت الجدّة تينا تقول إن المطبخ جيِّد في المساء، حين تهبط البرودة من الجبال. فيهبُّ على الظهر هواءٌ بارد عبر الجدران المجدولة، ومن الأمام يأتي الدفء من النار. تكون الأحاديث طيبة، والمقبِّلات لذيذة، والعصير منعشاً.

- نعم... لقد التقيت بدلافينَ في البحر. مهما كان الأمر، فإن عددها كبير هنا، - قال بطل أبيدَجْ، صديق فاليرا... وحدَث لي أحياناً أن لمستُها. نعم. كانت هناك أشياء كثيرة، ولكن... - ورفع الرجل شوكته، وعبس ناسياً ما كان يريد قوله بالضبط، ثم هتف: - آه! هذا... بل ورأينا ذاتَ مرة دلفينة مع فرخها الصغير الميت. كانت تحمله على أنفها طوال الوقت، وتدفعه إلى الماء، ثم تتركه. ولكنه كان يغرق. وهكذا كانت تعود فتنتشِله، وتخرج به إلى الهواء. كانت تظن أنه سيعود يتنفَّس، ولكنه كان ميتاً. ظللنا نذهب إلى ذلك الخليج أسبوعاً، بالقرب من كينديغا. هكذا ظلت تسبح به ثلاثة أيام. لا أعرف إن كانت تنام في الليل أم تتابع المحاولة لإحياء فرخها. ولكن... صار جسمه رخواً، يكاد يتفسخ، وهي لا تكفّ عن رفعه ليتنفّس. قد تكون تخلّت عن ذلك، أو لم تتخلَّ، ولكننا لم نعد نراها.

- نعم... - هزّ برأسه ساشا دَجانتيم الذي كان ضيفاً أيضاً في مطبخ كاغْوَا. - أشياء كثيرة تحدث.

- هناك شيء واحد لا أفهمه، - غمغمت الجدّة تينا. - هل يعقل ألا يكون عنده شيء آخر يهتمُّ به؟ يجب أن يكون عنده أسرة وأطفال. أنا مثلاً عجوز لا فرقَ عندي، قريباً أبلغ التسعين من عمري، بالكاد أمشي ولا أكف عن الشكوى.

- جدَّتَنا تينا! - بصوتٍ واحدٍ صاح ساشا وبطل وداود.

- أمّا هذا فماذا يفعل؟ إنه شابّ! خير له أن يذهب لصيد السمك!

- ولماذا يصطاد ما دام الأولاد يطعمونه، - ابتسم ساشا، وألقى نظرة إلى حمزة الصامت، ثم أضاف: طيِّب، لا تزعل. أعرف أنكم لا تُدللونه.

- قد يكون مثلَنا، ينشر الشِّباك ثم يسبح؟ - مزح داود.

- ليس عنده بيت. هذا يعني أنه لا يحتاج إلى إصلاح السقف.

- ليس عنده قنٌّ دجاج، فليس عليه أن يطعم الدجاج.

- بل وليس عنده مطبخ، فلا حاجة به للطبخ!

- اسمع، جميلةٌ حياة هذا الإنسان. - صاحت الجدّة تينا وضحكت. - هنا: هاتِ هذا، افعلْ ذلك، أغلقِ المكان الفُلانيّ بالمسامير... أمّا هناك فاسبحْ على كيفك!

طال بهم الحديث عن الدُلفين، وعن همومه الصغيرة. وحاول كل منهم أن يحكي شيئاً طريفاً عن هذا الحيوان البحري، شيئاً رآه وسمعه بنفسه، وشيئاً رآه وسمعه آخرون. وحده حمزة ظلّ صامتاً، نادراً ما يومئ برأسه إذا خاطبوه، وراح يغمس بملل خبز الذرة الصفراء بالصلصة.

كان يُحزنه أن هذه الأحاديث تبدو له عديمة الجدوى. لم يكن فيها حياة حقيقية. يعرف حمزة أن في الإمكان مواصلة هذا الحديث طول الليل، والليلة التالية، وهكذا حتى سنِّ الشيخوخة. فكان ينشغل عن أحاديث الآخرين بالتفكير ببِيْزو. أين كان يسبح، مع من كان يلعب، وبمَ كان يفكر؟ لا بدّ أن الدُلفين الكبير كان بالمقابل يفكر بصديقه الغريب الإنسان. وخطر للفتى أن يذهب حالاً إلى القارب ويَمضي به إلى البحر، لكنه كان يعرف أنهم لن يسمحوا له بذلك...

كان باسيا وميستان ينتظران عند باب المطبخ، يتشمَّمان ويترقّبان أن يلقي إليهما أحد بقطعة دجاج. وكان واضحاً في الغبش كيف تجد القط منتصباً، وكيف يستلقي الكلب قريباً منه.

أينع الصيفُ الأعشابَ الخضراء، ولوَّن جنَبات الطرق والوديان. وأزهرت نباتات الفيجوا، وراح حمزة يتأمّل أزهارها طويلاً. كان كلٌّ من بتلاتها الصغيرة، الرقيقة الثلجيةِ البياض مثلَ مهْدٍ عليه غطاء أحمر. وفي قلب البتلات تنتصب مجتمعةً أعمدةٌ طويلة حمراء، على رؤوسها كتل صفراء.

وانتشرت رائحة العسل، وفاحت روائح الأعشاب والبطيخ الأحمر، وأحياناً رائحة الفطر، ممتزجة برائحة البحر في معظم الأحيان.

حين تشتد حرارة الشمس يُمضي أهل القرى قيلولتهم وقت الظهيرة في الظل.

كان الهواء راعياً يسوق في السماء قطيع أغنامه الضخمةِ الناصعَ البياض وهي تتدافع وتتزاحم لتغدو أحياناً كسرب الخيول الشموس.

كان حمزة يجلس على مقعد بالقرب من نُزُل «دلفينيا» لعمّال مصنع السمك. لم يكن مسموحاً للصيادين البسطاء بالذهاب إلى هناك، لأنهم كانوا تابعين لصيادي الكولخوز، ولا علاقة لهم بالمصنع الذي كان يرأسه الجورجيون.

- ما لك حزين؟ - اقترب العجوز أهرا أبيدَجْ من حمزة وسأله. - أنت أيضاً. في عمرك يجب على الشاب أن يركض مع أصدقائه وينظر إلى الصبايا! من بعيد.

- يعطيك العافية...

- ما بك؟

- لا أستطيع إلا أن أحزن، قريباً سأبلغ الثامنة عشرة.

- ها...- جلس العجوز بالقرب منه وأسند عكّازه إلى السور. لف سيجارة ومرّرها على لسانه ثم أشعلها فتعكّر الهواء برائحة التبغ الجافة. - لا تريد الذهاب إلى الجيش، إذن.

- نعم، تنهّد حمزة، وبعد قليل من الصمت أردف: - لا تظنّ أني أخاف. أنت أدّيت الخدمة العسكرية وأنا سأفعل! حتى ولو أعفوني منها فإني سأذهب إلى الخدمة العسكرية بنفسي! والدي قاتل في الحرب، وداود خدم في الجيش وحدّثنا عن مدينة تشيتا...

- حين خدم داود كان زمن آخر، - قال أهرا أبيدَجْ.

- لا أريد أن أفارق بيتي، وعائلتي...

- ولا الدُلفينَ، - أضاف العجوز.

- نعم، وهل تعدّ هذا غباء؟

- كلا، لماذا؟ ربما يكون دلفينك بِيْزو صديقاً جيداً. إنه يظل صامتاً، على الأقلّ! - ضحك أبيدَجْ بلطف كاشفاً عن أسنانه القاتمة، وارتسمت حول عينيه تجاعيد كثيرة. ثم مرَّر سَبَّابته على شاربيه الشائبين وأضاف: - يعني، ولا يطرح أسئلة غبية.

- هذا أكيد.

- ولا يزعجك أبداً. صدِّقني. تستطيع أن تثق به. فالإنسان يخدعك، لأن مقدرته على الكلام لا حدود لها. يعرف كيف يبرّيء نفسه، وكثيراً ما يبرر لنفسه ارتكاب الشر. أما الحيوانات فبسيطة، إذا كشرت تعض، وإلا فإنها لا تؤذي. لو كان الناس أقلّ كلاماً، صدقني كان الشر أقلّ.

- أخاف أن أفارقه...

- تخاف أن يرحل؟

- نعم، سأغيب سنتين! - ورفع حمزة يده اليمنى وهز رأسه. - سوف أخبر أصدقائي أنني سأغيب، وسأشرح ذلك لأمي أيضاً، ولكن كيف أشرح ذلك له؟ كيف أقول له إنّي مسافر، وإنّ هذا واجب عليّ. وإنك لا تستطيع أن تأتي معي.

لم يجرؤ حمزة على الحديث عن خوفه على حياة بِيْزو. كان يخشى أن يخرج الدُلفين مرة أخرى إلى الشاطئ، فيفوت الوقت على إرجاعه إلى الماء. بل ومن سينقذه؟ ماذا لو وجده هناك مَزاوتش؟ وكم سيكون سعيداً...

- ربما عندما أعود لن يكون حيّاً. لم يبق لي هنا إلا أربعة أشهر...

- وما جدوى جلوسك وأنت تندب؟ - هتف أهرا. - اذهب! إنّي واثق أنه سيفرح لمجيئك! امرح ما دام ممكناً. ثم حين يأتي الوقت سينتابك الحنين!

ضحك حمزة:

- لا تقلق، أنا جالس هنا لبعض الوقت. قريباً سنذهب للصيد، سأنتظر هنا قليلاً.

- ما دام عندك بعض الوقت فلتذهبْ معي. لا خير في جلوسك حزيناً. هل أنت عجوز؟ هذا مسموح به لي ولجدتك، وممنوع عليك! انهض. سأعلمك شيئاً ما، وأنت بالمقابل ستساعدني. هناك يجب الإسراع بالعمل، وأنا فقدت القدرة على السرعة من زمان.

تبع حمزة العجوز إلى بيته. كان في باحة عائلة أبيدَجْ صخب وفوضى. الدجاج تركض بين الأعشاب. وتحت أشجار الليمون يتعارك الكلب والقط. وكان بطل، ابنُ أهرا، يشقّق الخشب حطباً قرب المستودع، فحيّا الضيفَ ملوّحاً له بالفأس. ترامت من البيت أصوات نساء، كثيراً ما ترتفع صراخاً وتهبط شاكية. وعلى الشرفة كان مذياع يغمغم على طاولة مخلخلة.

- انظر! - أشار العجوز للفتى إلى بقايا جذور طويلة رفيعة. - لقد قطعها بطل منذ الصباح. والآن حان وقت تشقيفها. هل علّمك التشقيف؟

- لا. - أجاب حمزة مقطباً جبينه.

- تعلّمْ، إذن. هذا جذع إجاصة بريّة. كانت ثمارها بهذا الحجم! - ثنى أهرا سبابته خاتماً، وكوّر عينيه ليعبّر عن أنه ما كان بالإمكان رؤية ثمرتها. - وكانت حامضة، شيء رهيب!... لم يكن منها فائدة. الآن سنغرس بدلاً منها شجرة تفاح. من نوع جيد.

- وكيف ذلك؟ - تعجَّب الفتى.

- بكل بساطة. سترى الآن، انتظر.

ذهب أهرا أبيدَجْ بخطوة سريعة إلى بيته متطوّحاً، يستند إلى عكازه. فشارك النساء الصراخ قليلاً، وعند الخروج أفزع دجاجة كانت تدور هناك. عاد يحمل قُصاصات من أغصان ملفوفة بقماش:

- هذه قصاصات، لقد قطعتها في شهر مايو من بستان التفاح. حفظتُها بعيداً عن الهواء في مكان مظلم. ها هي هنا، في قطع قماش...

راح حمزة يستمع باهتمام ويتابع كل ما يفعله العجوز.

- المهم هو أن تقطّع القصاصة من الغصن بشكل مائل. انظر كيف تكون.

لمس الفتى قصاصة الغصن.

- الآن عليك أن تساعدني. في البداية يجب أن تنظف القصاصات من الهواء. بالمبرد.

أحدث أهرا تجويفات ضيقة بشفرة في الجذمور[11]، قريباً من القشر. ثم أسرع فغرس فيها قصاصة الغصن الحادة وقلبَها إلى الداخل. ووفقاً لتعليماته أسرع حمزة بتثبيت القصاصات بتراب رطب يحيط بها من جميع الجهات.

- المهم ألا يدخلها الهواء!

وتوزعت القصاصات بمعدل ثلاث أو أربع لكل جذمور.

- انتهى! آمل أن ينجح التلقيح. إذا حالفَنا الحظ، سنقطف أول محصول بعد ثلاث سنوات. إن بقيتُ حيّاً سأضيّـفك، وإن متُّ سيضيّـفك ابني من ثمارها. كانت شجرة إجاص، والآن هي شجرة تفاح!

ابتسم حمزة وهو يمسح الطين عن يديه الملوثتين.

كان الشقيقان كاغْوَا يستعدان للصيد، يطوي داود الشبكة، ويفكّ حزمة القطع العوّامة. وكان بِيْزو يسبح قريباً من الشاطئ. لم يعد يخاف الاقتراب من الأماكن ضحلة المياه التي كان يكاد بطنه يلمس فيها الحجارة. كان الدُلفين ينتظر نزول الناس إلى البحر، ويرشق الماء ساخطاً أحياناً، فيتطاير

الرذاذ ضعيفاً، إذ كان بِيْزو قد تعلّم أن يغرف بفمه الماء ويلقيه رشقة كبيرة على حمزة الذي يتفاداها ضاحكاً ويعِده بأن يسرع.

- هذه المرة أنت من سيذهب إلى الصلاة؟ - سأله داود.

- نعم، ومع ذلك فإنّه من العيب أن تختبئ... كان بوسعنا أن نذهب معاً.

- أنت تعرف أنه لا يجوز.

- ولكن لا أحد يتتبّعنا! من يهمّه أننا نريد أن نجتمع في الحُرش؟ هذا يخصنا نحن...

- ليس نحن فقط. أنت تعرف... إذا علم الجورجيون فإنهم أول من سيركضون ليشتكوا.

- ولماذا يشتكون؟ كأن هذا يؤذيهم...

- يؤذيهم! قال مَزاوتش، وهو يدير ظهره لهم.

التفت الشقيقان كاغْوَا إلى تصوغبا الأصغر. تبادلا معه السلام بإيماءة صامتَين؛ ولكنهما أوقفا حديثهما. وسرعان ما جاء فيليكس.

- انظرْ، لقد صار الدُلفين هنا. يريد أن يطلب سمكاً، أليس كذلك؟ - سأل مَزاوتش.

لم يردّا عليه، فاقترب من الماء ونظر إلى بِيْزو وهو يسبح.

- لا أفهم، لماذا تنشغلان به؟ سيصيبكم منه شيء، فقد يسرق شِباك أحد ما...

- إنه ليس لصّاً، - قال حمزة.

- بل هو لصّ. كلّهم لصوص.

أدار حمزة له ظهره، ومضى يتفحّص قاربه الذي لا يشكو من شيء.

- إنه يستغلك. هذا كل ما في الأمر. فأنت تطعمه، وهو يدور حواليك. بوسعه أن يفعل الشيء نفسه مع أي إنسان آخر، حتى معي، ولكني على الأرجح لن ألقي إليه بسمكة...- ورفع مَزاوتش حجراً مسطحاً وألقاه بهدوء وهو يتكلم. - حدثنا أبي كيف كانت الدلافين تسرق سمك البوري من شِباكه، ما إن تقتربُ منها في الماء حتى تتفرّق هاربة، تغطس وتراقبك من بعيد وكأنها تقول إنك لن تقبض علينا. إنها تسخر، يا لها من أوغاد.

جلس فيليكس على خشبة يابسة، فتلقّت ثم أشعل سيجارة، وتابع داود طيَّ الشبكة من غير أن يستمع إلى هذا الكلام العجيب، على ما يبدو. وبضجر كان حمزة ينظف القارب من الوسخ، فيما كان الكلب باستا مستلقياً في ظلّ السور قريباً من الطريق.

- لقد تمكن والدي من إطلاق النار على الدلافين. وعندنا في البيت فكٌّ واحد منها. ألم أُرِك إياه؟ تعال، سأريك إياه. يمكن أن أُريه لصاحبك أيضاً. إنه درْس له، ليكون أذكى. - ضحك مَزاوتش بسخرية. - لو كان أبي حيّاً، لأطلق النار على دلفينك أيضاً.

مرة أخرى خطر لحمزة أن بِيْزو يحب معاشرة الناس ولا يخشى الاقتراب من إنسان ما، حتى من نوع مَزاوتش إذا عامله بلطف. إن هذا الابن الصغير من أبناء تصوغبا سيذهب إلى الجيش متأخراً عنه لبعض الوقت، إذ سيبلغ الثامنة عشرة في آخر أكتوبر. وحتى ذلك الوقت، يستطيع، إذا شاء، أن يؤذي الدُلفين. «يجب عليّ إقناعُ أخي بأن يهتمَّ ببِيْزو»، - قرَّر حمزة.

حين رأى الدُلفين الغرباء كفّ عن اللعب، وراح الآن يسبح من جهة إلى جهة.

- هل تريد أن أبيّن لك أن كل ما يحتاجه منك ليس إلا سمكة؟ - ابتسم مَزاوتش. - انظر!

أدار حمزة له ظهره، فرمى تصوغبا الصغير حجراً في البحر. وانتبه بِيْزو فتبع الحجر.

- ها هو يظن أنها سمكة! سأخصّك برصاصة، وليس بسمكة!

- إنك أحمق، يا مَزاوتش، - قال حمزة.

ظهر بِيْزو من تحت الماء حاملاً على أنفه الحجر. رآه حمزة فقهقه. وبصق مَزاوتش ومشى باتجاه القوارب. بات وجهه فظاً. كان الشقيقان تصوغبا يتمتعان ببنية جسدية قوية، ولكنهما لم يكونا جميلين. كان في مظهرهما ما يريب، خدودهما ضيّقة، أنفاهما عريضان، جبيناهما متقوسان، وفوق ذلك، كانت تشوهما ندوب وحروق ممتدة على أرجلهما.

- مَنِ الأحمق... - همس. ثم نهض ورفع حجراً آخر.

لاحظ حمزة ذلك فنهض.

ألقى فيليكس سيجارته جانباً.

رفع مَزاوتش يده على حمزة وضحك، ثم ألقى الحجر باتجاه الدُلفين. تناثر الماء. ولم يصبه.

- أنت! - صرخ حمزة.

- طيّب، أنا، ماذا؟ هل تظن أني لن أضربه مرة ثانية؟ - مرّر مَزاوتش لسانه على شفته العليا. ثم انحنى ورفع حجراً آخر. - سأظلّ أرميه بالحجارة إلى أن أصيبه.

كان بِيْزو يراقب ما يجري وهو ينظر من الماء.

- ماذا ستفعل؟ آ؟ سوف تنظر وتلوّح بقَبضتيك وتصفني بالأحمق؟

- مَزاوتش! - بصوت خفيض ولكنه واضحٌ قال داود. - ضعِ الحجر واذهبْ. أنت وأخوك لكما قارباكما وصيدكما، فاذهب.

تجمد مَزاوتش. نظر إلى فيليكس، ثم إلى داود الذي نهض. بصق مرة أخرى. رمى الحجر من يده وابتعد. راحت جزمته تغوص في حصى الشاطئ.

رافق بِيْزو القارب. كثيراً ما كان يطفو غيرَ بعيد عنه كي يتنفّس، وأحياناً يسرع فجأة ويمرق مثل غيمة رمادية تحت المجاديف. كان الدُلفين يحب السباحة تحت الماء، قريباً جداً من السطح وهو يدور حول نفسه. فكان حمزة يتعجب من أن بِيْزو، حتى وهو مسرع جداً، لم يكن يخضّ الماء، بل كان الماء يظل رائقاً، كأنْ لم تخترقه غوّاصة طولها متران وهو يلعب.

حين كان الدُلفين يسرع كانت زعنفة ظهره المشرعة في الهواء تتمايل مثل بكَرة قصيرة ولكنها ثخينة.

في القرية كانوا يستعدّون لصلاة الطهارة السنوية. لقد كانوا يقيمون هذه الصلاة على امتداد قرون كثيرة قبل السلطة السوفييتية، وفي سنوات حكم ستالين أيضاً. حدثت عمليات تهجيرٍ وملاحقات، إلا أن القرويين ظلوا يجتمعون في هذه المناسبة، ويسمحون لكل عائلة أن توفد عنها ما لا يزيد على شخصين أو ثلاثة، لأن البيوت الخالية من ساكنيها كان يمكن أن تثير الشكوك.

قبل ثلاثة أيام من هذه الصلاة كان أولاد غوتشوَا قد مرّوا على كلِّ البيوت الأبخازية بهدف جمع المال، وحصلوا على ما يكفي لشراء ثورين وطحين وملح.

كان كل شخص يعرف في أيِّ ساعة يجب عليه أن يخرج من بيته، وإلى أين يذهب. فأرسلت عائلة كاغْوَا كلاً من الجدّة تينا وفاليرا وحمزة.

لم تكن صلاة الليل هذه تتطلّب أقوالاً ولا أفعالاً، ولكن الفتى كان مضطرباً. سيكون عليه أن ينسى هذا الحدث طوال مدة سنتَي الخدمة العسكرية. في الماضي؛ حين كان يذهب إلى هذه الصلاة آخرون، داود أو هيبلا، كان حمزة يُنصت إلى أحاديثهم بسرور، ويشعر بالصلاة التي أدّوها وكأنها صلاته، لأنه كان يلتزم بما يجب: في النهار التالي لا يسبّ، ولا يغضب، وعموماً لا يسمح لنفسه بأن تراوده أفكار سيئة. في الجيش لن ينقل له أحد الأحاديث التي دارت، بل ربما لن يكون هناك مجال لتفادي الكلام البذيء.

ولكيلا يتبعهم الكلب باسيا، كانوا يحبسونه في غرفة الحمّام. لم يكن يفهم سرّ هذه المعاملة، فينبح ويعوي ويخدش الباب. لذلك أعدَّ له داود قصعةَ سمك مسلوق وبطاطا ليعتذِر له فيما بعد عن هذا الحبس الإجباري.

خرج فاليرا وحمزة والجدّة تينا حين غابت الشمس وراء بيتسوندا. كانت الطريق خالية، وتترامى من بيوت الجورجيين أصوات عالية. وكانت قطّة بين النباتات المتشابكة تحكُّ جسمها بالعشب. وبقرة ترعى على طول السياج. لم يكن هناك سيارات.

وسرعان ما بدأ الأبخازيون ينضمّون إليهم من الشمال ومن اليمين. كانوا يتبادلون السلام ويسيرون معاً، ولكنهم يحاولون ترك مسافة معينة فيما بينهم لكيلا يبدو سيرهم تظاهرة منظمة، وينظرون إلى بيوت الجورجيين بحذر.

برزت في الظلام شجيرة طَقْسوس معمِّرة، جذعها الثمين اليابس يشبه رقبة عجوز كثيرة العروق، تعلوها بدلاً من الرأس عشرة فروع عوجاء تغطّيها قشور تالفة اسودّت في بعض الأماكن.

- من شجر الطَقْسوس تُصنع أوانٍ جيّدة، - قالت الجدّة تينا وهي تكوِّر عينيها وتبتسم.

- حقاً؟ - سألها حمزة.

- أو- و- و! بل وعلى مستوى عالٍ! من تلك الأواني فقط يطعمون المسجونين.

ابتسم فاليرا ساخراً.

كانت الأشجار والنباتات المتشابكة تحيط بهم من جميع الجهات، وكانت الغابة مظلمة، لا تضيء الطريق نجومٌ ولا قمر، لذلك كان عليهم أن يسيروا ببطء تفادياً للتعثر بأيِّ جذور في الأرض.

بدأ يلوح لهم بصصُ نيران أمامهم.

ها هو حُرش السنديان. وكان عدد الناس كبيراً. لم يجتمع هنا سكان لِدْزا وحدهم، بل شاركهم الاجتماعَ نساء ورجال من القرى المجاورة.

كان السرُّ مختبئاً في الظلام. وبين أشجار السنديان المعمِّرة تظهر لمن يطيل النظر أرواحُ الأزمنة الغابرة. ففي ماضي الزمان كان أجدادُ الأجداد الحاليين يأتون إلى هنا. كانت كلماتهم مثل كلماتنا اليوم، ومشاعرهم تشبه مشاعرنا. هذه الفكرة كانت تجعل الصدر يضيق بالقلب. خطر لحمزة أنه لن يتجرأ على أن يعود الآن إلى البيت وحيداً. لقد عاد إلى الحياة عبر هذه الليلة الظلماء شيء قاتل وعنيد، شيء كان يخيف الأسلاف القدماء الذين عاشوا وتكاثروا على هذه الأرض.

كان حمزة يراقب جميع الحركات، يسجل ويحفظ في ذاكرته صوت كل أحد.

ضاعت بقية العالم في ضوء النار، السماء قريبة ورمادية، الأشجار بسواد الفحم كأنها غير حقيقية. حفيفٌ شرّير في كل مكان. لعل هناك وحوشاً هبطت عن الجبال، وها هي الآن تنتظر اللحظة الأفضل للانقضاض. بين الشجيرات المتشابكة ما يوحي بخطوةِ دبّ، الصخرة تبدو لك ذئباً يتربص، ووميض الظل جَفَلاً يعبر الطريق راكضاً.

ذبح الناس الثورَين، وبحركة فظّة تم قطع رقبتيهما، فاستلقت جثتاهما الثقيلتان بخبطة عشوائية على الأرض. ثم أخرج الرجال سكاكينهم وشرعوا يسلخون الثورين ويقطعونهما.

وسوّى أبناء عائلة غوتشا صفَّ الطاولات، فكاد طوله يفيض على كلِّ الفضاء الخالي من الشجر.

جلس الجميع على المقاعد، يتبادلون الأحاديث. ابتسم حمزة حين لاحظ أن الجدّة تينا قد تسنّى لها الوقت لتعلن لمن بجوارها عن شكواها من الأعشاب الضارة بحقل الملفوف. كانت النيران تطلق شررها العطر، ومن خواصر الثورين يسيل الدهن فيتساقط على الحواف والزوايا ويحترق، ويتطاير الدخان القاتم. كانت الرائحة مشبّعة إلى حدٍّ جعل كثيرين مجبَرين على ابتلاع لعابهم مرات متعددة وهم يتكلمون.

نضجَ اللحم بعد ساعتين. لم يضيفوا إليه أيّ توابل أو ملحاً، وَفقاً للعادات.

- فلنجلِسْ بسلام، - قال أحد المنظمين.

كان صوته حازماً، ولكنه لم يكد يبلغ الطرف الآخر من الطاولة، فاضطر الناس إلى تناقل كلامه همساً.

أدّوا الصلاة، وخمدت الأحاديث. بعد انتهاء الصلاة بات مسموحاً للحاضرين البدءُ بتناول الطعام. تولّى أبناء غوتشوَا حمْل سلال اللحم وخبز دقيق الذرة الصفراء، وراحوا يضعون الطعام على الطاولة. لم يكن هناك ملاعق ولا صحون، فأكلوا بأصابعهم، ثم مسحوا أياديهم بالعشب.

تحدثوا حول المائدة وضحكوا. لم يتبادل الناس الحديث حول موضوع واحد على طاولة بهذا الحجم. كانت كل مجموعة تناقش موضوعاً يخصها. فغنّى بعض الحاضرين، وكان العزف على الآلات الموسيقية ممنوعاً.

ألقى أحد الحاضرين كلمة دعا فيها بالخير للناس الذين جاؤوا اليوم، وللأبخازيين بشكل عام. وحثّ الجميع على أن يكونوا أوفياء لأرضهم وأهلهم.

- فلتكن الحرب عند الغرباء. حيث الظّلام. ذلك شأنها، - أمّا شأننا، - وبسط ذراعه، ورفع سبّابته، - شأنُنا هو السّلام! أن نعيش ونفرح! ننجب أطفالاً ونربيهم. أن نستقبل الضيوف ونكرمهم. هذا ما أُوصِينا به، وهذا ما سنفعله!

وسط هذا الجمع أبصر حمزة فيليكس تصوغبا، والعجوزَ أهرا، وبطل وأيناتش أبيذْج، وحفيظة وابنَها زاوور تشكادوَا، وطوران، ومارينا. وحين نهض الناس ليريحوا بطونهم المثقلة باللحم، انتقل حمزة وجلس بالقرب من زاوور، فتكلم الفتَيان قليلاً، ولكنهما كانا مسرورَين بالجلوس جنباً إلى جنب. كان يخيَّل إليهما أن الناس يتحرّكون داخل كرة صغيرة وضّاءة. ما إن تنطفئ النيران حتى يضمَّ الليل في حُفنةِ كفّيه أجسادهم المثقلة بالطعام.

كانت الأرض باردة، والأعشاب تتهامس مع الهواء، والطيور تبعث حركة في أوراق الشجر. وفاحت في الجوِ رائحة الطعام.

وقت الخروج عاهد كلُّ شخص نفسه على أن ينسى كلام السوء، وعلى ألا يسمح للخصام بدخول بيته، وأن يساعد جاره في كل شيء.

سار حمزة حزيناً في دربٍ ضيّقة معتِمة، وهو يتأمّل كلَّ حركة حوله. يساوره خوف من أن الناس، لسبب سحريّ ما، سيختفون كلُّهم، فيظلّ وحيداً.

- وهل لاحظتم أنه لم يشارك أحد من عائلة دَجانتيم؟ - سألت هيبلا العائدَين فاليرا والجدّة تينا.

- كلا... ألم يشارك أحد منهم؟ - تعجَّب فاليرا. - لماذا؟

- هل أصبُّ لك أخارتسفا[12]؟

- صُبّي.

خرج الجميع إلى الطاولات المصفوفة على الشرفة، فأصابهم ما تناولوه من طعام بالنعاس. ولمس حمزة رجليه فوجدهما رخوتين ودافئتين، وكأنهما لغريب.

- إنهم ذهبوا، مثلُهم مثل الجميع، ولكنهم رجعوا. - كانت هيبلا تصبُّ الحليب الحامض.

- ولماذا رجعوا؟

- كان الجورجيون يتعقّبونهم. فأدركوهم عند الباب وساروا في أعقابهم.

- شيء سخيف...

- ومع ذلك. لقد وصل ساشكا حتى الجسر، وهناك عاد أدراجه. فقد فهم أن الأمر لن ينتهي على خير. لذلك عاد، ثم دخل إلى عندنا وحكى لنا.

- أجل...- هزَّ فاليرا برأسه.

كانت أحلام نوم حمزة غريبة في تلك الليلة. فقد رأى في المنام أنه يمشي في الهواء، ويرتفع عالياً، إلى قمم السنديان. ظهرت له من الظلام والسكينة المعدومةِ الهواء كرةٌ تشعّ كأنها في النار. لها رؤوس صغيرة وذيل. وكانت حيّة تتكلم بصوت امرأة، وبدا كلامها مألوفاً لحمزة، ولكنه لسببٍ ما لم يستطع أن يفهم معناه. اقتربت الكرة منه، أحس الفتى بما يصدر عنها من نفحاتٍ ساخنة، فتراجع وسقط على الأرض، ووجد نفسه في ذلك المكان الخلاء الذي شارك فيه بالصلاة هذه الليلة. لم تكن هناك طاولات، ولا مقاعد. كان وحده. واختفت الكرة. ونظر حمزة إلى يديه فرأى أنهما سوداوان كالفحم. استيقظ خائفاً. قبيل الفجر، وطار النعاس من عينيه.

- نعم... يا له من حلم. طريفٌ، تُرى كيف ستفسره له الجدّة!.

اشتاق لِلِّقاء مع بِيْزو.

كان داود نائماً في السرير المجاور. خرج حمزة من الغرفة بهدوء، فصرّ الباب، ولكنه لم يزعج أحداً. وترك حمزة البوابة خلفه من غير أن يغسل وجهه أو يتناول فطوره.

كان الكلب باسيا راقداً على الشرفة، والقط ميستان مستلقياً في كوخ الحراسة.

لم يكن في الشارع أحد: لا ناس، ولا بقر، ولا كلاب. في الظلمة كانت الطريق ظاهرة بالكاد، ولكن حمزة كان قادراً على السير فيها مغمَض العينين.

كان الهواء بارداً، رطباً، فأنعشه. وعلى الرغم من الطعام الدسم الذي تناوله بالأمس، ومنامِه القصير كان جسد الفتى حرّاً وقوياً. كان حمزة يشعر كيف تخطو قدمه، وكيف تتحرك يداه بليونة، ولكنهما مستعدتان للقيام بحركات بارعة. هنا مكمَن الشباب والصحة.

ابتسم حمزة وركض. داعب الهواء وجهه. وقعُ خطواته. أنفاسُه، دقاتُ قلبه أكثر بروزاً ولكنها متوازنة كما هي العادة. كان الفتى سعيداً. ساورته رغبة بأن يركض طويلاً، حتى يبلغ نجمة المساء، حتى الأخ الأبدي الكآبةِ خولبييتسف، وحتى منقذه المقتول، الأخ شاربييتسف.

قفز حمزة من فوق السور فوجد نفسه على حصى الشاطئ. توقف، وتلفّتَ حواليه. لم تكن الشمس قد ظهرت بعد من وراء التلال الشرقية، غير أن خيوطها الأولى كانت قد انتشرت في السماء وكأن عاملَ طلاء ألقى على الأفق سطلاً من الألوان الصفراء والبنية. كان الشاطئ حتى الفنادق الرمادية في بيتسوندا خالياً. والبحر يداعب الصخور على مهل، يغصّ بتراجع الأمواج الضعيفة.

فرّغ حمزة قاربه ممّا فيه من لوازم صيد البحر ودفعه إلى الماء، ثم انطلق يجدِّف بسرعة خارجاً من الخليج.

لم يستعجل بِيْزو للقاء صديقه، لعلّه يسبح الآن في مكان قريب، يصطاد السمك وينام. وقد يكون أقنع فتاةً بموعد. وراق هذا الافتراضُ لحمزة، فصاح وهو يقف في القارب المضطرب:

- بِيْزو!

لم يشأ الفتى أن يصرخ بصوت عال، خشية أن يسمعه من كانوا على الشاطىء.

كان الماء بارداً، جسَّه حمزة بيده وامتعض.

بينما كان ينتظر ارتخى جسمه، وطلَب النوم. واحتقنت عيناه كأن دخاناً داهمهما. كانت رجلاه متوترتين إثر جريه قبل قليل. كان حمزة يعرف أن النوم في القارب خطير، فلم يسمح لنفسه بالاستسلام. ولكنه هبط إلى القاع، فاستلقى وأسند رأسه على مشمَّع الأرضية و... اضطرَّ إلى النهوض فوراً. فقد تجمعت عشرات الفقاعات عند الجانب الأيمن من القارب، وراحت تنطفئ بسرعة كأنها ماء يغلي.

- بِيْزو! - ضحك حمزة وهو يحاول أن يُبصر صديقه في التقلبات اللونية القاتمة.

وسرعان ما صعد فوق الدُلفين نفسه.

- لقد ظننت أنك نائم. أو مع البنات تمرح! -ابتسم الفتى وداعب خطم الدُلفين. -اسمع، حقاً، ما أطول أنفك! إنه أطول من أنف العمّ بطل! عندما تقف وتنظر هكذا، -أدار حمزة أنف الدُلفين جانباً، وجعله أفقياً، - تكون شبيهاً بزجاجةٍ عائمة.

لوّح بِيْزو برأسه كمن استاء من هذا التشبيه، وغطس. ثم صعد وأغرق الفتى بالماء.

- ماذا فعلت؟

مدَّ حمزة يده ليلمس الدُلفين، ولم يتمكّن من ذلك. فقد مال به القارب إلى حدٍ أجبره على القفز منه بثيابه. ثم ألقى الفتى بجزمته وبنطاله إلى مؤخرة القارب، ومضى يحاول لمس الدُلفين الذي كان شديد القرب منه، لكنه راح يبتعد عنه بسرعة فائقة ويشاكسه.

طلع الفجر فوق التلال الساكنة، وهطلت على البحر مئات الإشعاعات الشمسية الناعمة الرشيقة. كانت تتناوب وتتمايل حتى ظُنَّ أحياناً أن الألق يأتي من القاع، من مصدرٍ عميق واحد. راقب حمزة هذا الفيض اللوني المتغير، وحاول أن يقلل العطس. ليته يستطيع أن يتنفس نادراً، مثل بِيْزو! أن يصبح دلفيناً. أن يضمّ يديه كزعنفتين، ويتخلّى عن رجليه لينمو له ذيل بدلاً منهما. ثمّ يسبح مع إخوة البحر اللعوبين. وكما في الماضي، أن يصطادا السمك، إنما شريطة ألا يغادر عالم الماء الغريب أبداً.

قطع عليه هذه الأفكارَ ألمٌ لم يفهمه حمزة في بادئ الأمر، واكتفى بأن شدّ أعصابه. ثم أحسّ بحرارة شائكة تنتشر في جسمه من كتفه اليمنى. وحين لاحظ الدُلفين أن الفتى انشغل عن اللعب عضّه. كان الفتى كاغْوَا لا مبالياً بالألم، إلا أنه استغرب ذلك واحتار، فعام وصعد إلى القارب. راح يتلمّس العضة فوجد خمسة آثار صغيرة على جلده تنزف دماً فاتح اللون. كان كتفه متيبساً كأنّه ضُرِب بحجر.

- لماذا؟ - نطق حمزة.

ولاحظ أن يديه ترتجفان. كان يجب عليه أن يهدأ، فتنهَّد وجلس على المقعد. كان بِيْزو يسبح قريباً من القارب، يلوِّح بذيله ويندفع من الماء عمودياً وينظر إلى ما وراء الحافة. ثم دفع الفتى بأنفه دفعاً لطيفاً مرّتين. وبينما كان الدُلفين يسبح حول القارب ظلّ يُخرج رأسه تارة من الجانب، وأخرى من الخلف. وملأ فمه بالماء وأراد أن يبلِّل حمزة، لكنه غيَّر رأيه واكتفى أخيراً برشقة ضعيفة للغاية سالت على ذقنه الطويلة فقط.

ابتسم الفتى:

- نعم... صعب عليك التعبير من دون كلام. وإلا لكنتَ اعتذرت، وقلتَ لي، مثلاً، سامحْني، لم أكن أقصد، وانتهى الأمر. ولكنك لا تحسن إلا اللف والدوَران.

حرّك الدُلفين زعنفته بحدة وأبرز رأسه، فداعب الفتى جلده الناعم.

- طيِّب، سامحتُك، لكن إيّاك أن تفعل ذلك مرة ثانية!

ما إن ضرب الفتى الماء بكفَّيه وأصاب الرذاذ الدُلفين حتى انقلب الحيوان وغاص فاختفى، ثم عاد يقفز من الماء على شكل أقواس عالية بالقرب من القارب. كان حمزة يتمايل في القارب فوق الأمواج ويضحك. واستمرت اللعبة.

في طريق عودته إلى الشاطئ تعجَّب الفتى مما اعتراه من ارتباك. فقد شعر بالحرج والضيق وكأنه شخص آخر يعيش حياة أخرى. كان ذلك شعوراً بالكآبة، والضياع، والقلق. أسرع حمزة وربط القارب، ومن غير أن يلتفت غذّ خطاه نحو الطريق. كان يريد أن يستسلم للنسيان. أن ينسى كلّ شيء. وأن ينسى نفسه قبل كل شيء. «يا لها من مشاعرَ غريبةٍ... فمن أين جاءت؟». ورأى حمزة كيف تطأ الجزمة الأرض، وكيف تدعك العشب، ولكنَّ هذا كلّه كان شيئاً غريباً لا يخصُّه. يداه، الألم في كتفه، وجهُه... كل شيء غريبٌ عليه. خيِّل له أن الطمأنينة لن تعود إليه ثانية. وحين شاهد الجدّة تينا وهي تتناول فطورها الصباحي، وفاليرا وهو يتثاءب، توقّف الفتى. لقد أدرك أن وسواسَه يتراجع.

كانت هيبلا جالسة بالقرب من الطاولة تفرم الفليفلة من أجل هريسة (أدجيكا) العطِرة الحادّة. مستعينةً بحجرٍ عريض أملس، فيه جرن بيضوي الشكل، تضع فيه بذور الثمار وتدقّها بحجر آخر.

كان عملاً طويلاً ومنهكاً. وكثيراً ما كانت هيبلا تمسح جبينها ورقبتها من العرق بمنشفة، وتغمغم شاكية. وكانت أحياناً تدفع بقدمها دفعاً خفيفاً، من غير أذيّة، ما تتعثّر به قدماها من دجاج.

كانت أزهار الميموزا منتشرة على طول الطريق من المطبخ إلى غرفة الحمّام. وكان حمزة يحب أن يلمس الميموزا بيده وهو يسير مسرعاً، وينظر كيف تُسبل أغصانها طائعة بعد مروره، حيث تنضمّ أوراقها الكثيرة الأصابع مثلَ فراشات خضْر متطاولةِ الجسم سارحاتٍ في غيبوبةٍ خفيفة. كان هذا شيئاً مسلّياً ولكنه خطير. فالجدّة تينا لم تكن تسمح بالتعامل على هذا النحو مع النباتات اللطيفة، وكانت تقرّع من يفعل ذلك.

كانوا يقطعون شجيرات الميموزا في باحات الدور التي تربّي حيوانات، لأن هذه كانت تتسمّم بها أحياناً حتى الموت.

في الأسبوع الثالث من يونيو ذهب فاليرا مع ولدَيه إلى حقله. كان يجب تقليم الذُّرة الصفراء، أي قطْع الفروع الصغيرة النابتة عند أسفل الجذر لكي تحظى الساق الرئيسة وحدَها بعُصارة الأرض.

مع ارتفاع حرارة الشمس كان لا بُدّ من زيادة سقاية الملفوف في حاكورة البيت. وكان حمزة يحفر ويقلب التراب حول عروق نبات البطاطا.

وجادت شجرة التوت المجاورة بثمارها المتطاولة الزهرية اللون، الرطبةِ والحلوة. و أزهرت في جُنينة طوران شجيرات الدُّفلى. وكما في السنوات الفائتة، قالت الجدّة تينا لأخيها إنها ستكفّ عن الذهاب إلى بيته بسبب هذه الشجيرة التي تؤلم رائحتُها الرأس. وردّ عليها طوران بالضحك. لكن الجدّة تينا لم تنفِّذ تهديداتها، وكثيراً ما كانت تسرع إلى بيته لتحكي له ما دار من نميمة في المدة الأخيرة، ولتأكل منها أيضاً. بعد ذلك كان رأسها يؤلمها حقاً.

جرَّب داود أوّل درّاقة ناضجة. فعلى الأشجار القليلة الارتفاع كانت الثمار متواضعة ولكنها حلوة. وكان الدرّاق الذي تسيل عصارته عسلاً في الفم أشهى ما يحبّه الابن الأكبر في عائلة كاغْوَا.

- نعم... إنه الصيف! - همس وشعر بالحزن لإدراكه أنّ حمزة سيُمضي سنتَين لا يرى فيهما كيف تتفتّح أبخازيا، لا يشمّ أريج روائحها ولا يطأ ترابها.

وعلى جريِ العادة، كانت أفضل تسلية لبِيْزو هي أن يفاجئ صديقه بالظهور من جهة لا يتوقّعها، وأن يدفعه بلطف ملامساً ظهره أو يده. وقد ألِف حمزة هذه اللعبة، وكان أحياناً يتظاهر بالذعر، فيرتجف ويزعق. وكان هذا الردّ أكثرَ ما يروق للدلفين. إذ كان يفرح وينقلب من جنْب إلى جنب، ثم يختفي ليعود فيخيف حمزة من جديد.

لقد فهم الفتى الآن أن التصدّعات الغريبة كانت تصدر عن الدُلفين، ولكنه لم يكن يعرف لماذا وكيف كان يصدرها؟. وحتى المسنّون في القرية لم يستطيعوا تفسير ذلك. وقال أهرا إن الدُلفين

يعرف بهذه الطريقة إلى أين يذهب وماذا عليه أن يتجنّب. فبدا هذا الجواب مسلّياً، ولكنْ لا معنى له.

في آخر يوم من أيام يونيو راقب الشقيقان كاغوَا كيف تَصطاد الدلافين. في ذلك الصباح لم يصادف الدُلفين صيادي السمك، ولم يعُد ليقتربَ من قواربهم بعد ذلك. وراح حمزة يحدّق في البحر متعجّباً، إلا أن الأمواج لم تكشف له عن شيء.

عرَّج الشقيقان على الخليج المجاور. كانت راسية فيه أربعة قوارب، وكان زاوور تشكادوَا واقفاً في واحدٍ منها، والصيادون يتابعون سِرْب الدلافين.

- لقد جئتم في الوقت المناسب. - فرح زاوور. - إنهم بدأوا للتو. انظروا ماذا يفعلون!

راح الفتى ينظر مبتسماً كيف يتحلّق ما يقرب من عشرة دلافين في دائرة، واحداً وراء الآخر، كأنهم في احتفال. كان ممكناً أن يعرف المرء أن في وسط دائرة الدلافين سرباً من السمك. وكانت الدلافين تشقّ سطح الماء وتتنفّس ثم تنزل تحت الماء وتزيد من سرعتها، وكانت الدائرة تضيق.

- ليتنا نصطاد مثلَهم، - قال أحد الصيادين.

- نعم، - أجابه شاراخ بوتبا الذي يعرفه داود من خلال لقاءات نادرة في بيتسوندا.

- لم أرَ مثل هذا من قبل، - اعترف حمزة.

- قليلاً ما يحدث هذا هنا. الدلافين لا تحبّنا كثيراً. كنت أسكن قريباً من إينغور... في تلك الأيام كانت الدلافين تقترب منا. أحياناً كنّا ننشر شِباكنا فتسوق إليها السمك. لا أعرف ما كانت حاجتها إلى ذلك... ربّما، للتسلية. وكنا نحاول أن نتقاسم تلك الأسماك معها، لكنْ عَبثاً. كانت تغادر. إنها غريبة. وأنت... أنت، بالصدفة، ألستَ ابن كاغوَا؟

- نعم... حمزة كاغوَا.

- الصبيّ الذي صادق دلفيناً؟

أحسّ الفتى كيف سرَت الحرارة في وجهه وأثقلتْه. وابتسم داود حين رأى ارتباك أخيه من هذه الشهرة غيرِ المتوقّعة.

نعم، أنا.

- إذاً، لستُ أنا من يحقّ له أن يحدّثك عن الدلافين. - حكّ شاراخ بوتبا خدّه الشائك الشعر. - وهل دلفينك بين هذه الدلافين؟

- لا أدري، ربّما...

وفي هذه الأثناء ضيّقتِ الدلافين الحصار إلى عشرة أمتار. وراحت واحداً تلو الآخر تخترق الحلقة بقفزات جبّارة مائلة، وبدأ العرض. لم يكن للأسماك الكبيرة مفرّ، فأخذت تقفز من الماء تحت أشعة الشمس والرذاذِ المتطاير، تتقلّب في الهواء وتسقط. وفي هذه اللحظة بالذات تقفز مثيلاتُها، فيبدو وكأن السمكة لا تختفي في الماء، بل تقع على نابض يقذفها فتُجنّ، وتقفز كأن الدلافين قد طوقت سرب السمك بحلقة من النار وأجبرته على الغليان فيها. وهنا اكتشف الرجال أن الدلافين تتصيّد سمك البوري الموجودَ بكثرة. هزّ العجوز تاراخ رأسه بعد أن تصوّر أنه كان يمكن لهذا السرب أن يتوجّه إلى شبكته، وخطرت على باله إينغور من جديد.

انضمّت طيور النورس إلى فطور الدلافين. وبات عدد الطيور هنا أكبرَ من عدد الدلافين بعشرة أضعاف أو خمسة عشر ضعفاً. تقاتلت طيور النورس، وتعاركت. بعضها كان يسعى لالتقاط سمك البوري المتطاير في الجو، وبعضها الآخر كان ينتظر ما يطفو على السطح من بقايا سمكة ممزقة. وبعد خطف قطعة منها يكون لا بدّ من حمايتها، فيما يتقاطر النورس الجار النهم من كل حدْبٍ وصوب، باسطة أجنحتها البيضاء، تطلق نعيقها الرهيب، تلاحق بمخالبها ولعناتها كل رفيق محظوظ. كان لا بد من التهام ما يقع لطيرٍ من حصّة وهي بعدُ في الهواء تفادياً للمناقير والزِّحام. كان طائر النورس يبتلع قطعة كبيرة جداً في بعض الأحيان، ولكنه سرعان ما يعيدها إلى الماء ليتكرّر العراك عليها من جديد. أمّا إذا أفلح الطائر بابتلاعها، رغم كل شيء، وظهر أنه لا يعاني من رغبة بتقيئها، عادت الطيور إلى الدلافين.

لم تكن الدلافين تخجل من لصوص النوارس البيضاء، بل وكانت أحياناً تلتفت عن صيد السمك لتقبض، مثلما يفعل بِيْزو، على ذيل تلك الطيور المنفوش.

يظلّ الطوق المضروب محتفظاً بنظامه، وتظلّ طريقة الهجوم عبره ثابتة. إذ كان الدُلفين يقبض على كل سمكة يصادفها في طريقه، ثم يتيح لدلفين آخر أن يفعل الشيء نفسه، فلا تتوقف نافورة أسماك البوري عن الفوران.

- كأنها في مقلاة! - ابتسم زاوور.

- انظر إلى طيور النورس! كأنها أصيبت بالجنون!

فوق معركة الصيد البحرية هذه كانت تتلألأ الآن سماء حقيقية من طيور.

أنهت الدلافين الصيد وراحت تعبث لاهية بجانب القوارب، وشرعت تتقافز، وتتراشق بالماء، وتمرق سريعة ليعلو الزبد في الماء مُرخيةً رأس زعنفة الظهر، فتتمايل ذات اليمين وذات الشمال.

بعدئذ تغادر الدلافين الخليج. وكان حمزة يأمل، وهو يتذكر كلمات شاراخ بوتبا، أن يقترب منه بِيْزو. وبذلك يثبِت جدارته بالشهرة. غير أن بِيْزو لم يأتِ.

- لعلّه لم يكن هناك أصلاً. كيف لنا أن نعرف؟ - قال داود بعد قليل. - فالدلافين كلّها متشابهة، ونحن كنا نقف بعيدين عنها بعض الشيء.

- نعم... - تنهّد حمزة وهو يفكّ عُقَد الشبكة.

في اليوم الأوّل من يوليو هدر الرعد في الجبال وراء قمّة مَمْزيشخا العالي، ثم انداح تماماً جهة وادي تشخا. وهناك، فوق سلسلة من الهضاب، انتشرت سحُبٌ تعِد بأمطار غزيرة. وجعل البرقُ الكثيف الرعاةَ يلوذون بأكواخهم، والبقرَ يتجمّع تحت الأشجار.

غير أن الطقس كان حسَناً في المنخفضات، حيث لم يكن يُنتظر هطول الأمطار في وقت قريب.

فوق الشاطئ كانت تطلع من وراء الهضاب وتعلو غيومٌ كثيفة متفرّقة. وفوقها كان يمتدّ صوبَ البحر على شكل زخارفَ متداخلةٍ دخانٌ من رمل قليل لا تضيع فيه الشمس، فترسل ضوءها صافياً لا يعكّره شيء.

كانت روائح الأزهار واليودِ طيّبة، ولكن كانت تُفسدها رائحةٌ خانقة من مصنع السمك تنتشر دائماً بقدوم هذا الشهر. كانت روائح التعفّن وأجوافِ السمك تصل أحياناً إلى مسافة كيلومتر في جميع الجهات، وإذا ما هبّت ريح شرقية فكانت تلك الروائح تتفرّق في جميع أرجاء لِدْزا.

- اسمعْ، - توجَّه ساشا دَجانتيم بالكلام إلى حمزة، - لقد زرت قبل ثلاث سنوات حوض الدلافين في باطومي. يجب أن أقول...نعم! إنها تقدّم استعراضاً. تقفز، وترقص وتتقاذف الكُرات، وتلعب بالأطواق الدائرية بمهارة. لعلّك تقيم أنت أيضاً حوض دلافين؟

- بالضبطً! - ابتسمت هيبلا. - على الأقل، سيكون لدلفينك بِيْزو جدوى.

- يا لها من فكرة! سيأتي لمشاهدته روّادُ المصحَّات الطبيعية. فحوض الدلافين شيء نادر. قليلون من يُحسِنون التعامل مع الدلافين... لكنتَ جنيتَ كثيراً من المال!

كان حمزة يتضاحك، ولكنه ظلّ صامتاً.

- يكفي ما تسبّبينه للفتى من خجل. خير لك أن تأكلي من هذا العسل. أمسِ جاؤوا به لطوران من قرية بسْخو.

- لماذا تقول إنه فتى؟ - تعجّب ساشا. - قريباً سيبلغ السابعة عشرة من عمره! لقد صار خيَّالاً! وأنت تقولين الفتى... - نفض دَجانتيم يده وانحنى ليتناول ملعقةً يجرّب بها العسل. - حقاً، إن أهالي

بسْخو غريبو الأطوار. الله أعلم أين يعيشون! فهُم يُمضون نصف العام لا يعاشرون بشراً كأنهم مطمورون في الثلج! ولكنهم لا يريدون أن يرحلوا. أمّا عسلهم فإنه كما ينبغي، لا خلاف في ذلك.

- أنت تعرف أنهم هربوا من القانون إلى هناك. حاولْ أن تصل إليهم. إنهم يختبئون في ضيعة أو في أرض مشاع. - قالت هيبلا وهي تمسح الشبشب بخرقة.

- أووو! يا للرعد!

- لا بأس. دعْه. انظرْ، ها هيَ طيور النورس تسبح، وهذا يعني أنه لن يكون هناك عاصفة ماطرة. بل وليس هذا وقتها. سوف تأتي بعد بعض الوقت. بعد نحو أسبوعين، ليس أبكر.

خلع حمزة حذاءه وقفز من الشرفة إلى البيت، فدخل غرفة والديه. كان يعجبه أن يتفحّص تفاصيلها، وأن يشمّ روائح الجلد والأعشاب فيها. كان أثاثها متواضعاً، مثلما هو في بقية الغرف. بالقرب من الجدار سريرٌ وبجواره طاولة صغيرة، وفي الزاوية خزانة للثياب أُلحِق بها صفّ رفوف مصنوعة يدوياً. اقترب الفتى الآن من الرفوف تحديداً. كان معروضاً عليها بضعُ صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود محفوظةٍ تماماً إلا زواياها التي كانت مثنية من قبلُ ثم سقطت. في واحدة منها كانت الصرامة بادية على وجه أنطون بافلوفِتش، زوجِ الجدّة تينا، وهو يرتدي معطفاً قوقازياً قصيراً له قبَّةٌ عريضة متينة وحِزام معقود. كان ظاهراً وراءه بيت كاغوَا القديم الذي ظلّ مهجوراً في تكفارتشال. وفي الصورة الثانية كان أبزاغو كاغْوَا، والدُ أنطون، مبتسماً. كان يرتدي عباءةً من شَعرٍ وقبعةَ فروٍ عالية لم تُبقِ ظاهراً للذكرى إلا وجهه. وكان على طاولة في الجوار سيف معقوف، فيما كان أبزاغو يحمل بيده المسبلةِ سوطاً. وفي الصورة الثالثة كان الشقيقان: حمزة وهو في الرابعة من عمره، وداود وهو في الحادية عشرة من عمره، واقفَين بالقرب من بيتهم الحالي في لدزا.

وفضلاً عن الصور، وصندوقين صغيرين، ومنحوتات يديوية من خشب البقس، واثنتين من أصداف البحر، كان هناك كتبٌ مصفوفة على الرفوف، منها قصة دميتري غوليا «تحت سماء غريبة»، وروايته «كاماتشيتش» في طبعتها قبل الثورة، وقصص لاكِربا «ألاميص»، وكتابان لـ تَرْبا، وكتاب لـِ غوتشوَا. وأكثر ما كان يحبّه الفتى هو حكايات أبخازيا المطبوعةُ على ورقٍ ثخين أبيض، والمغلفةُ بِساتان أخضر حسَنِ المنظر والملمس.

لم تكن الغرفة نظيفة ومرتّبة بسبب ما تراكم فيها من أشياء. فبين السرير والجدار كان يوجد ركام من السلال والأكياس والخِرق. وصناديق خشبية مكدّسة، واحداً فوق الآخر بالقرب من الرفوف. وفي الخزانة، علاوة على أشياء أخرى، كان يوجد محرّكُ قاربٍ قديم جاء به فاليرا خشية أن يسرقوه من المستودع. ولأن هذا المحرّك يحول من دون إغلاق باب الخزانة، حزّموه بحبل.

سمع حمزة في باحة البيت هدير السيارة «زابوروجيتس» قد عادت، فانتقل إلى غرفته.

في اليوم التالي كانت تنتظر حمزةَ تسليةٌ هو مولع بها، ولكنها نادرة، إنها تقديم العلَف لدود القز.

جاءه زاوور في الصباح، وراحا معاً يقطعان أغصان التوت مع أوراقها بفأسين صغيرتين. ثم وضعا تلك الأغصان في جيوبهما، وعادا في طريق طولُه سبعة كيلو مترات. وخلال تلك المسافة تحدّث الصديقان عن الدُلفين، وعن دعوة الخريف للالتحاق بالخدمة العسكرية.

بات القيظ شديداً، فتعرّق الفتَيان، لكنهما كانا سعيدَين بالشمس، يبتسمان وكلٌّ منهما يتلقّاها بكتفيه وظهره وصدره. كان صقيع مارس يبدو لهما الآن بعيداً جداً، وكأنه يخصُّ زمانَ أجدادهم، بل وأجدادِ أجدادهم. لقد كانت الشمس موجودة دائماً، ومعها الشباب والقوة والضحك.

رأى الصديقان، وهما يقتربان من بناء الثُّكْنة الرمادية الطويلة، أنهما لم يكونا وحيدَين في اهتمامهما بدود القزّ. فقد كان يقف خلف البوابة أربعةُ فِتيةٍ من قرية مجاورة. لم يكن في هذا ما يُضير، لأن عدد الدودات الجشعة كان يكفي جميع سكان المنطقة بأسْرها.

أمام المدخل أشجارُ زانٍ، قِشرُ الفتيّ منها ناعم، رماديّ فاتح، أما الزان القديم فكانت قشوره متكسِّرة وخشنة. هناك أيضاً ثلاثُ أشجارِ سروٍ رفيعة عالية، يتفرّع عنها عند المتر الثاني من جذوعها نحو عشرة أغصان متشابكة، شامخة إلى فوق، مكللة بالإبَر. وكانت السروات مثل مكانسَ عملاقة مغروسةٍ في الأرض، كأن عمالقة شعوب النارْت القوقازية تكنس بها عُزبةً عمومية.

ما إن شقَّ حمزة الباب حتى ضحك وعضّ على شفته السفلى بأسنانه. كانت تتردد هنا، تحت القبة، موسيقى رائعة تطلقها الدودات وقت تناول الإفطار على شكل حفيفٍ صادر عن آلاف الفكوك الشديدة الصغر. وحين ينقطع الحفيف يرنّ إيقاع خاص، إذا أطلْتَ الإنصاتَ إليه خيِّل لك أن العالم مجنون ومقلوبٌ رأساً على عقِب. إن الحياة هنا مستحيلة، ولكن البقاء في هذا المكان نصف ساعة يُعَدُّ بين الصبية مُتعة. ولكن، يا للروائح القاتلة!..

على طول الثكْنة كان هناك، بالقرب من كل جدار، خمسة رفوف مفروشة بورَق الجرائد. وكانت الدودات البرّاقةُ كالجواهر، والكثيرةُ الحركة تأكل أربع مرّات في اليوم غيرَ آبهة بالراحة، تلصق في كل مكان علامات كحبّات الخرَز قاتمة لها رائحة استثنائية. يجب على العاملين هناك أن ينظّفوا أوراق الجرائد، فكانت تلك الرائحة الثقيلة تسبّب لهم آلاماً في الرأس.

وضع كاغْوَا الصغير أمام دودات القزّ أوراق التوت مقلوبة إلى جهتها المخملية وراقب كيف تضمّها الدودة على شكل أقواس متساوية وهي تحرّك فكّها السفلي الدقيق، وطبعاً، كانت في الوقت نفسه تشارك الجوقة العامة غناءها المرافق «تشيك- شيك- شيريك»؟

تجمّع في هذا الصباح في الثكنة سبعة فتيان. كانوا يتبادلون الحديث أحياناً، ولكنهم يظلون صامتين أكثر الوقت لكيلا يُفسدوا نشوة هذا الحفيف.

- إلى أين؟!- ضحك حمزة حين رأى دودة تنحرف مسرعة صوب ورقة توت تلتهمها جارتها. - إنك لم تأكلي كل ورقتك بعد! هيّا عودي إلى ورقتك! - وساعدها الفتى بأصبعه.

قريباً سيبلغ طول الدودة الواحدة سبعة سنتيمترات، فتتوقف عن تناول الطعام، وتغدو خطواتها بطيئة تخلّف وراءها خيطاً من الحرير شفافاً لا تكاد تميّزه العين. ثم ستعود الدودات تلفّه حول نفسها ليصبح شرنقة لها. حينها يكون لا بدّ من مراقبة الدودة بمزيد من الانتباه، لأن توضَع الشرانق في الوقت المناسب في صناديق خاصة وتنقل إلى مصنع الحرير بالقرب من مدينة سوخومي. هناك يتسلم القرويون مقابل الشرانق إيصالاً يقدمونه في لدزا ويقبضون قيمته المالية في الكولخوز المحليّ.

لم يكن العاملون يأخذون لأنفسهم شرنقة واحدة، ليس لأنهم شرفاء، بل لأنه لم يكن هناك من يشتريها. ثم إن الأشخاص الذين يعرفون مهنة غلْيِ الشرانق للحصول منها على خيوط الحرير باتوا طاعنين في السن، أمّا الجيل الشاب فلم يكن يهتمّ بهذا العمل العسير، كان يعرف أنه عمل سيّئ الرائحة، وبُخاره يبعث على الغثيان.

في النهار ذهب حمزة إلى الشاطئ. كان يطيب له المشيُ بالقرب من الأمواج وهي تتكسّر برفق على طول الشاطئ، تارة يغطي الزبد قدميه، وتارة تلفح الشمس القاسية عريَهما. كان الفتى يريد أن يلتقي مع بِيْزو. وحين رأى زعنفة بعيدة في البحر غطس تحت موجة. وبعد أن قطع مسافة قصيرة وأَلِفت عيناه الماء رأى حمزة أنه مطوَّق بمئات من قناديل البحر الشفافةِ تقريباً، ويصدر عنها بريق فضي خفيف. خطر لحمزة أن هذه القناديل الصغيرة، التي هي أصغرُ من قَبضة اليد، أرواحُ بحّارةٍ هلَكوا ولا يعرفون كيف لهم أن يخرجوا من البحر بعد الموت، وها هم الآن يقتربون من الشاطىء، علامة إنذار لطقس سيئ. تابع الفتى السباحة وهو يُبعِد بكل حركة منه أجسام قناديل البحر المشدودة، المطواعة، فتنزلق على صدره وظهره، ولكنها لا تلدغه.

ظهر بِيْزو، وتجمّد على وجه الماء. ومن غير أن يدور، أخذ يشقّ الماء سريعاً، والزبد يتعالى في طريقه إلى الفتى. وفي اللحظة الأخيرة، حين بدا أن الضربة الموجعة حتمية، تمكّن بِيْزو من التوقف وأسقط على حمزة ما لا يُحصى من الرَّذاذ الناعم. كان الفتى يعرف هذه الطريقة، كان في كلّ مرة يخاف من أن يُخطئ الدُلفين الحِساب. وعلى جريِ العادة، مثلما يفعل دائماً، فرح الدُلفين حين أخاف صديقه، وكأنه أفلح في القيام بفعلٍ يستحقّ عليه الثناء، والبقاءَ في الذاكرة. كثيراً ما كان بِيْزو يرفع رأسه ويخفضه كأنه يضحك، ثم يدور مرات بالقرب من صاحبه. وبعد أن يطمئن يقترب منه ويسمح له أخيراً أن يسلم عليه ويداعبه.

كان الدُلفين يطلق عبر خياشيمه نوافير، فيما حمزة ينظر بسرور كيف يقذف صديقه الماءَ مسافة متر ونصف المتر. وكان حمزة يتعمّد صبَّ الماء في خياشيم الدُلفين ليعود فيقذف بها بعيداً. لم يكن الفتى يعرف إن كان هذا التصرف يُعجب بِيْزو أم لا، لذلك لم يكن يكرر هذا الفعل كثيراً، إنما في لحظات الحماس الخاصة فقط.

- كيف سأعيش من دونك؟ - سأله كاغْوَا الصغير، ولامس الندوب على خاصرتي الدُلفين. - فنحن لن نلتقي مدة عامين. آ؟ ماذا تقول؟ إنك تصمت... ولكن... أنت على حق. لماذا التفكير الآن بذلك؟ سيكون لدينا وقت للوداع. الآن يجب أن نفرح. أليس كذلك؟

التصق حمزة بالدُلفين، ووضع وجهه قريباً من زعنفة ظهره. وسبح به بِيْزو وهو يرفع ذيله ويخفضه على مهل. لو حدث هذا في الماضي لكان الفتى أطلق صديقه، لكي لا يثقل عليه، أما الآن، فبالعكس، عانقه بقوة. كانت الأمواج ترتفع حتى تبلغ فمه فتمنعه من التنفس. طيور النورس تطير في السماء. الشمس ساطعة بقوة. غيوم رقيقة. طعم ملوحة على الشفتين. الجسم المشدود في العناق بات جسماً آخر. وبدا الأفق شاطئاً. وزاد بِيْزو سرعته بحِمله فأذى الماءُ أنفَه وغطّى عينيه. لم يعد يرى شيئاً. لا شيء إلا السرعة والبحر. ورغم التعب والإنهاك، لم يتوقف عن الضحك. أخذ الفتى نَفَساً فشرِق بالماء وانزلق عن جسم الدُلفين المرِن. شعر بمرارة في الحنجرة، سعل وتسارع تنفُّسه. ثم استلقى على ظهره وأغمض عينيه. سكون. بعد لحظة أحسّ بشيء يلمس يده، ثم رجله. ذلك كان بِيْزو، فابتسم كاغْوَا الصغير، وقد لفحت الشمس وجهه. كانت تلك اللحظات ذروة السعادة والسرور.

بحلول الأسبوع الثاني من شهر يوليو ظهرت في باحة بيت كاغْوَا قطّة. لم يعترف بها أحد من الجيران، وأعلنت الجدّة تينا أن القطة غريبة عن المكان. لم يطردوها، بل ضيّفوها خبزاً مغمَّساً بصلصة السمك. لم يكن هذا الطعام متاحاً دائماً حتى للقط ميستان الذي استاء من تقديم هذه الضيافة لها، فطال هريرُه وهو يروح ويجيء بالقرب من الشرفة. إلا أنه لم يجرؤ على الاقتراب من طبق الضيافة، فقد كان يعرف أن الجدّة تينا ستردّه على أعقابه.

كانت القطة التي صاروا ينادونها مامْكا، بعد أحداث لاحقة، قد تأقلمت مؤقتاً. وفضلاً عن الحصول على الطعام كان عندها عمَلان تقوم بهما: أن تنظِّف بلسانها أماميَّتَيها الطويلتين الهزيلتين، وأن تُشبِع الكلب باسيا لحْساً. كان واضحاً من بطنها المتهدّل أن مامْكا قد وضعت صغارها قبل وقت قصير، ولكنّ قططها الصغيرة لم تكن موجودة في الأماكن القريبة. لعلّ أحداً أغرقها، فقد كان حنان الأمومة، مثلُه مثلُ الحليب، موجودَين لديها بالتأكيد. لم تكن القطة تحسن إرضاع أحد بالقوة، وكان الحب أهوَنَ عليها من ذلك. لقد رفض القط ميستا حنان الغريبة. أما الكلب باسيا فكان متعجِّباً للغاية ممّا يلقاه من اهتمام مامْكا به، فلم يتسنَّ له في البداية أن يعبِّر عن استيائه، ثم فات الوقت على فعل ذلك. كانت تلحسه بلسانها كلّما سنحت لها أدنى فرصة. وكان باسيا يتذمَّر ويعاقب مامْكا على إفراطها بتقبيله. فيعضّها، ويثبّتها على الأرض، ويخدشها بمخالبه ما إن تقترب منه، بل ويعبِّر عن امتعاضه بهرير قوي. كانت القطة تتحمل فظاظته وتتابع الاهتمام به. كانا يغفيان معاً. وكانت الدجاجات وهي تمرّ أمام وكْر الكلب تتلفّت متعجِّبة من هذا الثنائي الغريب.

كانت مارينا وحفيظة تعرِّجان على الجدّة تينا، فتتحدّثان طويلاً، بين شكوى وشتائم، ثم سرعان ما تسامحان زوجيهما وتتذكران السنوات الخوالي. بعد ذلك تبصِّر مارينا بفنجان القهوة، وكثيراً ما تعِد بأخبار جيدة. وقد تنبّأت لحفيظة بحبٍ قريب. كانت حفيظة متزوِّجة، فضحكت ثم بصقت ودقّت على الطاولة.

جاء طوران، شقيقُ هيبلا، حاملاً معه لحماً وحليباً. فقد كان يملك مزرعة للحيوانات، وكان يقايض منتجاته بسمكٍ من عند فاليرا، وَفقاً لاتفاقٍ قديم. بهذه الطريقة تكون البضائع أرخصَ ثمَناً لكليهما. لفّ داود اللحم الطري بقطعة قماش ووضعه في سلة مع صُررٍ صغيرة يصعب التفريق بينها. ثم علّقها بحبل وألقى به في البئر ليظلّ محفوظاً هناك تحت سنتمتر واحد من الماء حتى سبتمبر. ووُضِعت القطع الأخرى في المطبخ كي تجف وتصبح لحماً مقدّداً. يُغمر بعد ذلك بالفاصولياء ويُحفظ في جرارٍ طويلة.

قدّم الجيران لكاغْوَا ثلاث بطيخات ناضجة تحتاج كل منها لأن تُحمَل بكلتا اليدين.

- ثمارٌ جيدة! - ضحك حمزة.

كانت بقية الأشجار في الجنائن والبساتين ما تزال في طريقها إلى النضج، وثمار الكيوي قاسيةٌ يغطيها وبَرٌ خشِن، وبدت ثمار المندَرين مثل قَبضات خضراء مشدودة بقوة. وكانت تتدلّى على غصنين اثنين ثمارٌ مائلة إلى الحمرة يمكن أن يظنها الغريب باقية من العام الماضي، لكنها كانت يابسةَ اللبّ ولا تصلح للأكل، طبعاً. أمّا شجرة الجوز بين البيوت، ولم تكن ملكاً لأحد، فكانت ما تزال خضراء. كسّر حمزة وزاوور بضع جوزات منها فوجدا فيها أجنّ ة مجعّدة في سائلٍ لزِج، واصطبغت أيديهما بالسواد، عبسا لوهلة ثم ابتسما، إذ طالعتهما من البيوض المكسورة رائحةٌ عطرة ونفاذة.

تسلّقت داليةُ العنب خمّ الدجاج، وكان حصرمُها شديدَ الحموضة يصيب من يبلعه بآلام في البطن. وكانت شجيرة القَرانيا، التي تفضِّل الجدّة تينا ثمارها على ما عداها، محتفظة بلونها الأحمر، ولكن حمزة كان يحتقر هذه الشجيرة، لأن ثمارها تجعل الفم وكأنه ينتفخ ويتجعد في وقت واحد.

لم تكن شجرة التين موجودة في لذْزا إلا في باحاتِ بيوت نادرة، وكان الوقت الآن هو الأفضل لجنيِ ثمارها، فيؤكل بعضه ويجفَّف بعضه الآخر.

اختفى بِيْزو. فلم يظهر في الأسبوع الأخير من شهر يوليو، ولم يقترب من الشقيقين كاغْوَا ولو لمرةٍ واحدة. لم يحدث ذلك من قبل. فتوقف داود عن صيد السمك بالصنَّارة، وسبح ومعه أخوه إلى الخلجان المجاورة بحثاً عن الدُلفين.

كانت الدلافين تظهر أحياناً مصحوبة بطيور النورس، على بعد كيلومتر من الشاطئ. غير أن حمزة لم يكن يعرف إن كان بِيْزو بينها أم لا.

- لا يمكن أن يكون قد نسيَني بهذه البساطة. لا أصدِّق، - همس الفتى.

ولمّا لم يظهر بِيْزو خلال ثلاثة أيام متتالية، ظنَّ الأخَوان كاغْوَا أن مكروهاً أصابه، فراحا يسبحان بعيداً عن الشِباك، يتفحّصان الصخور، ويسألان عنه الصيادين الآخرين.

في المساء كان حمزة يسبح وحيداً، يرفع المجدافَين إلى القارب ويتمايل فوق الأمواج وهو يتحرّى البحر الذي أظلمت أعماقه فيما كان سطحه يلمع تحت آخر أنفاس الشمس. وكان الفتى ينحني أحياناً على حافّة القارب وينادي بصوت خفيض.

- بِيْزو! بِيْزو!

لكن الدُلفين لم يظهر. وحين انتظر ذات مرّة إلى أن خيّم الظلام تقريباً، أحسَّ بأن قلقه يتحول إلى توتر وغضب، وراح يشقّ الماء بمجدافه وهو يصرخ:

- بِيْزو! أين تذهب بك الجقلان؟! بِيْزو!

أخذ يجدِّف إلى الأمام مسرعاً، ثم أضناه اليأس فاستدار بالقارب، ومضى يضرب المقعد في المؤخِّرة، ويركل المشمّع، ويسبّ.

- حوتٌ عديم الدماغ! ذلك أنت...

قال حمزة هذه الكلمات وضحك، ولكن سرعان ما عاوده الحزن من جديد. كان يجب عليه أن يعود.

- لا تهتمّ كثيراً! - ضحكت هيبلا. - ما هذه السخافات! قل له يا فاليرا!

هز فاليرا برأسه، ولكنه ظلّ صامتاً، فيما راح حمزة ينكت بشوكته قرص خاتشابوري الذي يغطيه الجبن والبيض، بعد أن رفض نهائياً طبقاً من الحنطة السوداء مع السمك المملّح. ووقف باسيا عند قدميه شحّاذاً، ولكنه لم يُلقِ بالاً إلى الكلب وهو يتوسّلّ ويلوّح بذيله.

كانت القطة مامْكا مستلقية وسط الشرفة ولا بد من تخطيها من دون أن تمسها قدم. وكان ميستان يتمشى على طول السياج، وينظر إلى الناس بكسل.

- أنت نفسك عليك أن تفكر، - تابعت هيبلا محاولة إقناع ابنها بأن يطمئن، فلا بدّ أن تكون للدلفين حياته الخاصة! لعلّه وجد زوجة وبنى أسرة، أخيراً. وهو الآن مشغول بأشياء أخرى. لقد شبع سباحة ولهواً، يكفي! إنه لن يُمضي حياته بالتسلية معك...

- بالمناسبة، - قال فاليرا وهو يمضغ. - من أين تعرف أنه ذكر؟

أثار السؤال عجب الجميع، وخيَّم بعده السكون. لم يعُد مسموعاً إلا قرقعة الطناجر في المطبخ. هز حمزة كتفيّه، وتمنّى للجميع ليلة طيبة وذهب إلى غرفته. لم يغضب الأب كاغْوَا وقد رأى حزناً حقيقياً في سلوك ابنه.

نام حمزة نوماً سيئاً. فاستيقظ في الليل، وخرج من البيت. كان يتصوّر بِيْزو، ويفكر بالخدمة العسكرية. لم يسبق له أن غادر بلاده أبخازيا من قبل. وجالت في خاطره حكايات داود عن تشيتا.

كانت قد مرّت سبعة أيام لم يظهر فيها بِيْزو عندما خرج حمزة وذهب في الصباح إلى الشاطئ مصدّقاً أن الدُلفين قد اختفى إلى الأبد. لا بدّ أن يكون بِيْزو قد وجد بين أهله أفضل الأصدقاء ورحل معهم إلى أفضل الأماكن. قد يعود في الربيع القادم، «ولكني لن أكون موجوداً هنا». لم يسمح حمزة لنفسه بأن يتصوّر أن الدُلفين مات. واكتفى بأن يتذكر في مرّات نادرة جسمه الرماديَّ العاجز على حصى الشاطئ. «لماذا قفز يومها خارجاً من الماء؟ أم أنه أُجبِر على ذلك؟ ولكنْ من أجبره؟».

«هنا تكمن الحياة. لقد كنت محظوظاً بعقد صداقة معه مدة ثلاثة أشهر، سيكون عندي ما أحكيه للأحفاد، ولكن هل سيصدقونني؟».

نشر الشقيقان شبكتَيهما وانطلقا، فاستلقى حمزة في قاع القارب وغطّى وجهه بقطعة قماش، فيما كان داود يصطاد. راحت الغيوم تبيَضّ مثل الجبن المقطوف للتو. ومن الجبال ترامت من جديد أصداء عاصفة رعدية بعيدة. كانت قناديل البحر تحتشد متزاحمة في الخليج، وتنبأت الجدّة تينا بهطول أمطار.

ارتعد حمزة ونهض، فتمايل القارب بفعل حركته الحادّة. لقد ظهر بِيْزو! تارة يغطس، وتارة يقفز من الماء وهو يقترب من الصيادين. كانت تُرى بوضوح من هنا على جسمه اللمّاع نقطتا عينيه الداكنتين، والبقعةُ السوداء على خيشومه، ولم يلبث أن مرق الدُلفين مسرعاً بالقرب من الصيادين، من دون أن يتوقف، مثيراً أمواجاً في البحر فغضب حمزة.

- يا لشطارتك! - صرخ وقفز من القارب.

راح بِيْزو يتقلّب، ويطوّح برأسه، ويخبط بذيله الماء، يقترب من الفتى، يدسّ أنفه في صدره، يغطس ويدفع صاحبه من تحت ثم يختفي. وأخذ يقوم بقفزات قوسية عالية.

طرح حمزة عن نفسه الحزن والوساوس. فها هو ذا بِيْزو إلى جانبه من جديد.

وبعدما خمد ذهول اللقاء الذي طال انتظاره، راح الفتى يداعب رأس الدُلفين ويهمس له:

- أين اختفيت، أيها الطفيلي!

- أمّا أنت فكنتَ تتعذب، - ابتسم داود، وأردف: - كنتَ تقول إنك ركبت على ظهره. كما تركب الحصان، ولكنْ...

- نعم!

- دعني أراه! واسمحْ لي أن أمتطيه أيضاً! وإلا اختفى مرة أخرى!

خلع داود جزمته، ثم سدّ أنفه بأصابعه وارتمى على ظهره في الماء.

يوم الثاني من شهر أغسطس احتفلوا ببلوغ ساشا دجانتيم الثانية والأربعين من عمره. لم يكن قد انقضى عام الحِداد على وفاة أمّه بعد، فكان الاحتفال متواضعاً وهادئاً. كان يريد أن يلغي الاحتفال بهذه المناسبة، إلا أنه لم يشأ أن يُحزن أصدقاءه.

كان الضيوف على علم بمصاب دجانتيم فتحفّظوا في الاحتفال، وغنّوا من دون آلات موسيقية ورقْص. وانقلب الاحتفال مائدة بسيطة مع أحاديثَ حسنةٍ وطعام. كان في الباحة طاولتان، ولكن المكان كان ضيّقاً. فكان لا بدّ من مدّ سفرة على طاولتين أخريين في المطبخ وعلى الشرفة.

- ها هيَ ساتانيه- غواشا! - ضحك دجانتيم حين رأى هيبلا.

- دعْكَ من هذا! إنك في شيخوختك تزداد غباء. أليس كذلك؟ - ضحكت المرأة.

وعلى الرغم من بشاشتها كانت هيبلا حذِرة. فقد كانت تعرف أن أيناتش، ابنةَ أخت بطل أبيدج، التي أبدت فيما مضى اهتماماً بفاليرا، موجودة بين الضيوف. وذات مرة بعد خلاف صاخب كادت أيناتش أن تنال مأربها وتحرم عائلة كاغْوَا من الأب. لقد نسيَ الجيران بعد مُضيِّ تسع سنوات هذه القصة، إلا أن هيبلا كانت تذكر كلَّ جملة قيلت في ذلك المساء المشؤوم. أما فاليرا فقد حصر اهتمامه بأنواع أطباق اللحم وصلصة (تكيمالي) الجورجية الحامضة.

- أو- و - و! لولا تشدُّدُ والدي معي، وخوفُ العرسان منه، لكان عندي الآن خمسة أولاد! - اشتكت الجدّة تينا وهي تلمس ركبتيها المريضتين. - كانت القوانين وحشية! ما لك! في ذلك الزمان كان ممنوعاً على الشاب أن يتعرَّف إلى فتاة!

- هذا... ما أقوله! في الماضي كانوا يتعقّبوننا، نعم! بالضبط كانوا يتعقّبوننا! - راح يحكي ساشا دجانتيم لجاره. - أذكر عندما خرجت أنا وأيناتش، صادف أن لاحظنا على الفور شخص يقف في الخارج. مشينا، فتتبعنا. وكان الظلام شديداً، فلم أتمكن من التّعرف عليه، ولكن أنا متأكد، كانوا يتعقبّوننا!

- وماذا عن دلفينك، هل يسمح لأحد بلمسه؟ - توجه غْفاج دجانتيم، عمّ ساشا، بالسؤال إلى حمزة.

- نعم! حتى إنّي أتجول راكباً على ظهره، - ضحك الفتى.

- وكيف هذا؟

- أمتطيه وأمسك بزعنفته وهو يسبح. هكذا أتجول.

- لعلّك تقدِّم له طعاماً؟

- نادراً. فأنا أقدِّم له خمس سمكات أو ستاً في اليوم. لا أكثر. إذا كان أبي قريباً مني فإني لا أقدم له ولو سمكة واحدة.

- آها...! - ضحك غْفاج وهو يمسِّد شاربيه. وبإيماءة منه صبَّت أيناتش مزيداً من العصير في كأسه.

ترامى من الغابة عواء جقلان: «غا- ال- كا- كا-كا»، تمدّه رنّاناً، تارة كلٌّ جقل بمفرده، وطوراً كلها في آنٍ معاً. كان صوتها كريهاً وجارحاً يستطيع في الظلام أن يثير خوف الإنسان، ولكنه خوف مقرف. يقول مَن يعرف الجقلان إن عاداتها كريهة مثل عوائها، ولكنهم يعترفون بأن مظهرها جميل.

- هل سمعتم هذا؟ - ضحك بطل. - إنهم يهنّئونك، نعم.

- هذه السنة كان الثلج قليلاً في الجبال. - قال طوران. - فتجرّأتْ وتتسلَّلت إلى بسخو، وسرقت خمسين صوصاً من أحد البيوت.

- الجقلان تعرِّج علينا أيضاً. وقد سمعتُ أنها خطفت دجاجاً من عند عائلة خفارتسكي.

- وماذا فعل كلبهم؟

- أي كلب، اسمع! إن الجقلَ محتالٌ كالثعلب، وماهرٌ مثل قطتك. يدخل فلا تلاحظه ولا تشعر به! في الليل!

ما تناولوه من طعام سخّن الحديث. كثيراً ما كان الرجال يرفعون أصواتهم ليثبتوا لجيرانهم شيئاً ما، أمّا النساء فكنّ يضحكن. لم يكن يحل الهدوء إلا وقت تناول الطعام حول مختلف الطاولات، عندها يكون لا بدّ من بعض الإنصات. راح زاوور يلقي لكلب البيت بعض الطعام خفية. فقد كان الكلب مختبئاً تحت الطاولة، يروح ويجيء من طرف إلى طرف، يلمس الناس بذيله وهو ينتظر أن يلقي له أحد شيئاً.

شرب حمزة الكثير من العصير اللذيذ وراح ينظر إلى الأعلى. كانت دالية العنب تنتشر فوق شرفة عائلة دجانتيم مثل سقف مجدول، ومن الثغرات الصغيرة بين أوراق الدالية كانت تتراءى السماء والقمر الفضّيان، «هل هناك مَجرَّة دلفين، يا تُرى؟ لا يمكن ألّا يكون القدماء قد اكتشفوا في الكواكب إلا الدببة والعقارب... أم أنهم ما كانوا يعرفون كمِ الدلافين طيبة؟» - جال ذلك في خاطر

الفتى، فشعر بدفء النشوة يسري رقيقاً في جسده. ولم تَخْبُ بسمته. راودته رغبة بقول شيء جيد، رقيقٍ، رغبةٌ بالفرح، بالحب، بالحياة. اختلطت هذه المشاعر بالنعاس.

كان طوران يبسط ذراعيه بقوة أقلقت جاره. فقد كان النقاش حاداً بينه وبين بطل. وتهامست هيبلا مع حفيظة وهي تراقب بعينيها أيناتش الصامتة. وتعِب فاليرا من الطعام فراح يبتسم راضياً، وينصت وهو يدخِّن لُفافته إلى كلمات طوران الرنّانة. لقد قام كثيرون عن مقاعدهم ومضوا يتمشّون في باحة البيت كي يريحوا مَعِداتهم.

- قل لي، هل ينفِّذ بعضَ أوامرك؟ - ألحّ غْفاج دجانتيم بالسؤال.

- أوامر؟ - أهمل حمزة مراقبة النجوم وأعاد السؤال.

- أعني... هل يطيعك وتستطيع أن تتحكّم به؟

- لا أعرف... لم أجرِّب... لماذا؟ إنّي ببساطة... أسبح معه. إنه مثل أخ لي.

- كيف مثل أخ؟

- لكنّ من الغباء أن تتحكم بأخيك. - بعد هذه الكلمات خاف حمزة فوراً من حدّة ما قاله وأسرع إلى الصمت. - سامحْني، إنني...

لم يُلقِ دجانتيم بالاً إلى حدّته:

- فلنقُلْ، مثلاً، إنك إذا خرجتَ إلى الشاطئ وناديته... هل يتبعك الدُلفين؟ أم أنه يأتي حين يشاء؟

- يأتي، - ابتسم حمزة.

- إنك لا تكفّ عن الكذب، - قال مَزاوتش من وراء ظهره.

- ماذا؟ - تجهّم وجه حمزة.

- أنت تكذب. فهو لن يأتي.

حدّق الفتى في وجه مَزاوتش القبيح. أحسّ بالغضب. أراد أن يردّ عليه بفظاظة، أن يهين مَزاوتش بكلامٍ جارح.

«هل أقول له عن ساقيه المشوّهتين؟ عن أسرته التي لا تكف عن الخصام؟ عن أنفه الكبير؟» - توتّر حمزة، ولكنه صمت.

- وماذا، أليس عندك ما تقوله؟ إنه يستغلّك. فأنت تطعمه وهو يتبعك. من أجل سمكة. - وضحك مَزاوتش ساخراً، ثم نفض يده وهو يعتزم الخروج حين قال حمزة:

- كلّا!

- ماذا؟ - توقف مَزاوتش.

تزايدت أنفاس حمزة وأحسّ بالضيق وهو يتنفّس. إن أفكاره التي كانت قبل قليل هادئةً، موجّهةً صوب النجوم، قد انقلبت الآن وعصفت بها زوبعةٌ منعته سرعتُها القوية من الجري وراء تلك الأفكار. أن يبادره بكلمة. أن يصرخ ويضربه. أن ينتقم منه. ليتهما كانا على انفراد، لكان مزّق هذا الجقلَ في جلد إنسان.

كان غْفاج دجانتيم يستمع إلى هذا الحديث ويبتسم.

- أثبتْ لي!

- ماذا؟

- إنه يطيعك. فلنذهبْ إلى الشاطئ. هناك تناديه، ونتبيّن من منّا على حق.

- فلنذهبْ!

نادى الفتَيان همساً، مثل متواطئَين، كلاً من زاوور وفيليكس، وخرجوا من البوابة الخلفية.

ساروا صامتين. كان الجوُّ دافئاً ليس فيه ريح.

الشوارع خالية. ضوء يشتعل في الباحات، ولكن البوابات كانت مغلقة. بعض فراشات تطير إلى المصابيح المثبتة على السياج فتصطدم بزجاجها الساخن.

حفيفُ البحر. ابتسم حمزة. خفَّ غضبه.

هسيس الخطوات في الحصى، رائحة نباتات البحر. وبدت القوارب المقلوبة في الظلام ملاذاً لبنات آوى[13] الأسطورية، أي لبشَر الغابات. كانت البيوت الواقعة وراء الطريق ضائعة في هذه الساعة في ظلمة الغابة التي تقترب، وبدا الشاطئ موحشاً. على الماء كانت تتقلّب أوراقٌ فضية، وتحت القمر تتلوّى درب ضيقة من حرير.

أحسّ حمزة أنّه استعاد وعيه. لكن جسمه ما يزال يرغب بالنوم.

- هيّا، أرِني كم أنت ذكي.

حاول مَزاوتش أن يجلس مقرفصاً، لكنه سرعان ما تعب. فكان عليه أن ينهض واقفاً.

- بِيْزو! - صاح كاغْوَا الصغير مكرَهاً. لم يسبق له من قبل أن سمح لنفسه بأن ينادي الدُلفين بهذا الصوت العالي.

كان يجب على الدُلفين أن يساعده!

- بِيْزو! أين أنت؟! - تجمّد حمزة.

كان مسموعاً حفيف الأحجار تحت تكسّر الأمواج. ولم يكن هناك من أصوات أخرى.

ابتعد الفتى صوب القوارب مكسوفاً، فأخرج مجدافاً وعاد به إلى البحر، يصرخ ويضرب به الماء. كان كاغْوَا الصغير يدرك أنه سيغدو مضحكاً إن لم يظهر الدُلفين بعد كل ما يفعل. ماذا يقول... في البعيد! هناك ومضت نقطتا ضوء صغيرتان، خضراوان، ساطعتان مثل عيني ميستان في الجُنينة ليلاً. صرخ حمزة بصوت أقوى، وزاد من ضرباته الماء بالمجداف. أحقّاً أن ما رآه لم يكن إلا خيالاً؟

- ها هو!

- ماذا؟ - سأل مَزاوتش.

- إنه يعوم. انظروا! بِيْزو!

- لا أرى شيئاً!

ومضت نقطتا الضوء على بعد نحو عشرين متراً عن الشاطئ، فقفز حمزة وضحك. ازدادت دقّات قلبه، وارتجف جسمه وبدأ الألم يعصف برأسه.

- هذا هو بالتأكيد! لقد قلت لكم!

ولكن ما من أحد أبصر الدُلفين.

- وماذا؟ - سأل مَزاوتش.

- لقد كان هنا. أنا رأيته! أقول لك إنه اقترب منّا، ولكن... لعلّه خائف. خاف من وجودكم مجتمعين. وخاف منك، على وجه الخصوص!

- هل رأى أيّ منكما الدُلفين؟ كونا صادقَين! - خاطب مَزاوتش كلاً من فيليكس وزاوور، فصمتا.
- لا أعرف علامَ تعتمد؟ ليس إلا على ما تتخيله، ولكنك لم تنجح. يكفيك إذاً تبجحاً أمام العمّ غْفاج. لقد خسرتَ الرهان. طبعاً، كنا نستطيع أن نستمع إلى مزيد من صراخك و... هذا المزاح بالمجاديف، إلا أنه خيرٌ لنا أن نعود، وإلا فإن ساشا سيزعل.

ارتسم التوترُ تجاعيدَ على وجه حمزة، فألقى بالمجداف على الشاطئ، وابتعد. كان بنطاله المبلول يلتصق برجليه، وحذاؤه يطلق خفقاً دبِقاً كلَّ خطوة.

كان الفتى يعرف أن هيبلا ستؤنّبه. وسيكون عليه أن يبرّر ويكذب... لقد خطّط مَزاوتش لهذا الشيء عمْداً. وإلا فلماذا تدخّل في الحديث؟! «يا للجُرذ، والجُرذ النتن!» كزّ حمزة على أسنانه بقوة سبّبت له صفيراً في أذنيه. هاج غضبه. أراد أن يهرب ويركض من دون توقف إلى أن ينفد هذا الهياج من جسمه الذي يتألم.

- ليتك ترى نفسك! كأنك مهرِّج! - سخر منه تصوغبا الصغير.

شتم حمزةُ واستدار، ثم هجم على مَزاوتش.

أعاقه الحصى عن الركض سريعاً، فكانت قدمه تغوص فيه. لم يُتَح له أن يباغت خصمه. وبعد أن استوعب مَزاوتش ما يحدث، تهيّأ للعراك وضم قبضتيه، فضربه حمزةَ على يديه ضرباً موجعاً. ثم همهم بصوت خفيض وطوّق مَزاوتش بيديه وألقاه أرضاً.

المكان يعج بضجيج البحر ورائحته، والصخور الصامتة، ورائحة الشابين المتعاركين، وهدير صوتيهما يصمُّ الآذان. والظّلام قلّص الرؤية، فكان حمزة يقاتل مهتدياً باللّمس، ويوجه ضرباته بشكل عشوائي.

البحر يهدر، وآلاف النجوم تومض في السماء. طوَّق مَزاوتش رقبة حمزة من الخلف وشدّ ظهره إلى صدره. راح حمزة يوجِّه ضربات يديه إلى الخلف كيفما اتُّفِق، محاولاً أن يصيب رأس خصمه. ضرب الحصى بيده مرتين. أحسّ بالألم. ثم عادت قبضته وأصابت بضربتين شيئاً صلباً، ولكنه مرن. وتعالى وقع صفعات ثقيلة ومكتومة، وزاد مَزاوتش الضغط على رقبة كاغْوَا، وأنَّ صدرُه وهو يحاول إخفاء رأسه، لكن حمزة استأنف الضرب. كان يعرف أنه يصيب وجه خصمه، وانغرست أسنانه في قفا رأسه. وجّه له ضربةً بقبضته من جديد، وانفصل الفَتيَان عن بعضهما بعضاً. ابتعد كلٌّ منهما جانباً، وأحسّ حمزة أن رقبته تحجّرت.

نهضا، كان الدم يسيل من أنف مَزاوتش وشفتيه، وكانت أنفاسه متقطّعة. أدرك حمزة أنه يستطيع الآن أن يُجهِز على عدوّه تماماً. ستنتهي السخرية والإهانات. لن يدنو منه مَزاوتش بعد الآن، وإذا

ما التقيا في الشارع مصادفة فإنه سيُلقي السلام من غير حماس، إلا أنه لن ينظر في عينيه. يجب عليه أن يذلّه أمام زاوور. فلأجعلنه يتوسّل إنهاء العراك، وليركعْ على ركبتيه ويتضرّع. بصق حمزة. أحس بألم في فكّه السفلى. فكر بأن يدنو منه ويضربه إلى أن يعود الارتجاف إلى وجهه من جديد.

- كفاكم هذا، - قال فيليكس. - فلنذهبْ.

نظر مَزاوتش إلى حمزة من غير أن يبسط قبضتيه. وعلاوة على ما كان في نظرته من غضب، ظهر الآن فيها الضعف أيضاً. كان وجهه المهشّم يبدو في ضوء القمر غير حقيقي، كأنه وجهُ دمية.

توجّه الشقيقان تصوغبا ببطء نحو الطريق.

اقترب زاوور من صديقه، ومن دون أن يقول شيئاً، ربت على كتفه وعرض عليه العودة إلى البيت.

لم يسأل أحدٌ حمزة عن سبب خروجه المبكِّر من عيد ميلاد دجانتيم. ولم توبِّخْه هيبلا على حذائه المبتل، وبصمتٍ دسّت في فردتيه قشاً ووضعته في الزريبة ليجفّ. وتكلّم داود قبل النوم عن أشياء لا علاقة لها بما جرى. وحدَه فاليرا قال مساء اليوم التالي، وهو يتفحّص محرِّك السيارة.

- نعم... إنك حاسبتَه على أحسن وجه. على مستوى رفيع! - قال الرجل ذلك وهو مقطبٌ جبينه، وكأنه كان يتحدث بلسان أمّه. - لقد رأيتُه. إن وجهه أزرق كلّه! لا بأس، سيكون الآن أكثر مسالمة. لقد توحّش بعد موت والده...

تعجّب حمزة، فقد كان يعتقد أن أسرته لا تعرف ما حدث، وأخفى عنها سُلاميّة أصبعه المكسورة. كان للإطراء وقعٌ طيّب عليه.

في الصباح الذي تلا العراك كان الفتى يتمشّى على الشاطئ. يدقّق النظر في زبد انكسار الموج بعيداً. فجلس في المكان الذي تعارك فيه بالأمس مع مَزاوتش. «لماذا تصرّف بِيْزو على هذا النحو؟ لقد كان هناك، بين الأمواج، إنّي واثق من ذلك! وقد سمع ندائي! ولكنه... لكنه أحسن التصرف. ما من غبيٍّ غيري». كان النهار حافلاً بالغيوم. سكونٌ يسبق العاصفة.

ذهب حمزة إلى حُرش الصنوبر. كان يعرف أنه عبثاً تخاصم مع مَزاوتش. الغضب لذيذ حين يظهر، وحين يذهب لا يخلِّف إلا شعوراً بالندم.

تذكر حمزة وهو يلقي بأحجار إلى الماء بأيّ حماسة استقبله بها بِيْزو في البحر، وكيف راح يدور حول القوارب. فابتسم وأدرك أن عليه أن ينسى مَزاوتش، فهو ليس جديراً بالغضب. دعْه يعيش في غيظه! قرّر حمزة أن يمتنع في المستقبل عن الخصومات والعراك. وفي غمرة هذه الأفكار عاد

مرة أخرى وتذكّر أنه سيبلغ الثامنة عشرة قريباً، وأنهم سيسوقونه إلى الجيش. وربما سيجبرونه على القتال. على إطلاق النار... لا لزوم للتفكير بهذا، لم يحِنِ الوقت بعد، ما أزال في لدْزا، ومعي بِيْزو، وأهلي...

كانت طيور النورس تتمشّى بين الأشجار. الصباح دافئ، رغم تجهّمه. والسناجب لا تكفّ عن الحركة بين الشجيرات الكثيفة. ومن البيوت يترامى صوت ضربات الفؤوس. أشجار الصنوبر عالية، بديعة. اكتسى بعضها لبخله بقشورٍ بنّية اللون، وتلفع بعضٌ آخرٌ منها بهندام كثيف من نباتات طفيلية دبِقة ولبلاب.

- مرحبا! - ألقى حمزة التحية على أهرا أبيدج. كان العجوز يدخّن جالساً على قطعة خشبٍ، يرتدي جزمة دافئة وبنطالاً رمادياً، ومعطفاً شركسياً نظيفاً أبلاه طولُ السنين، يحيط به حزامٌ رقيق من جلد البقر. وتحت الحزام خنجر في غمد تزيّنه خيوط ذهبية حمراء. كانت قبّعة سوداءُ من الشعر، ضيّقة الحوافّ، تغطي شعر العجوز.

وكان بين رجليه عكّاز من الزان. فقد كان أهرا أبيدج يحب أحياناً أن يختار يوماً محدداً، يناسب مزاجه ليلبس هذا الزيّ بالضبط إحياءً لذكرى أجداده. بل وكان يحشو الجيوب المخصّصة على جانبي صدره بخرطوش بندقية الصيد التي أهداها له ابنُه بطل. قال العجوز، ببسمته وأسنانه السوداء، وهو يمسّد شيب شاربيه.

- هل تعرف لماذا يسمح الوالدان للعريس الذي يتقدم لطلب يد ابنتهما بزيارتهم لعدة مرات، يقدمون له الطعام والشراب، وقد يتعمدون استفزازه بطلباتهم وتحقيقاتهم، ليتّعرفوا إليه عن قرب، بهدف اختبار قدرته على الصبر والتحمل.

- هز أهرا رأسه، ولوّح عالياً بسبّابة يده اليسرى وأضاف:

- ما أكثر الرجال الذين خسروا فرصتهم في الزواج بسبب سوء طباعهم! تنظر إلى الرجل، فإذا به حسنُ الطلعة، وما أن يغضب حتى ينقلب إنساناً لا تعرفه. منهم من يفخر بنفسه ويتبجَّح كأنه صقرٌ يقف على جبلٍ عالٍ، والآخرون صغار كالنمل، حتى إن العين لا تراهم. ومنهم من يكشف عن نفسه الضئيلة ضاحكاً ضِحكَ جقل. نفْسٌ تبلغ من الضآلة ما يجعل ثمرة البرقوق بالمقارنة معها بطيخةً ضخمة. كذلك هناك من ينقلب شريراً، فيصرخ ويهاجم. وهناك من يمتشق سيفاً، ومن يتناول مسدساً. هذه أمور وقعت ورأيت منها الكثير. من حسن الحظ أنهم صادروا من الأبخازيين السيوف والمسدسات. لذلك هم يكتفون بالقبضات في الوقت الحالي.

- أنت تعرف وقت الغضب يعمى البصر... - تنهّد حمزة. - أظنّ أن هذه الأشياء يطويها النسيان وقتَ السلام...

همس حمزة..

-وكيف يمكن نسيانُ ذلك الخطم الأزرق المنتفخ! - ضحك أهرا ضحكة خفيفة. - كان مَزاوتش قبيحاً أصلاً، أما الآن فهو أقبح من مجدورٍ أرقط. ولكن، لا بأس... ما هو إلا أسبوع، أسبوعان، ويزول الانتفاخ. بل وهو سيتربّى، اجلِسْ، ما لكَ واقف!

جلس حمزة على طرف الخشبة، فلفّ العجوز سيجارة أخرى، ثم أحاطها بكفّه وأشعلها. ففاحت رائحة تبغ قويّة.

- كيف دلفينُك؟

- جيد. - لم يكن حمزة يريد أن يحكي عن خلافه مع مَزاوتش. - محزن أني لا أستطيع أن أكلِّمه. بيننا شعورٌ متبادَل، ولكن أحياناً يطيب لي أن أحاكيه. في المساء أركب القارب، أجلس على جزئه الخلفي وأبتعد، فيظل بمحاذاتي، ينظر إليّ. وإذا ناديته... يظل صامتاً.

- شيء جيد، - قال أهرا أبيدج ضاحكاً. - دعْه يصمت. لو كان يتكلم لأعياك بثرثرة الدلافين. ربما كنت وجدته كثير الكلام! يسرُّك حديثه أوّل دقيقة فتحاول أن تردّ عليه، أما هو فيسترسل في الحديث عن السمك، وعن التيارات العميقة. ثم يبدأ بتعليمك المسامير والشِّباك، أيّ فائدة تُرجى من حديثه عمّن يعرف من أصحابه الدلافين! دعْه يصمت.

ابتسم حمزة.

- ذات لحظة سوف تفهم أن الناس يُكثرون الكلام. مع أنهم يتكلمون عن سخافات. يُلزمون أنفسهم بالحديث عن كل شيء. «لم تعُد بقرتي تدرّ حليباً، قريباً ستلِد». وما حاجة الجارة إلى هذا الكلام؟ ماذا تجني من ذلك؟

«انظر، كيف أشرقت السماء». أمّا أنا، فكأني أعمى، لا أستطيع أن ألحظ شيئاً من تلقاء نفسي!

كان العجوز يتكلم بأصواتٍ مختلفة وهو يقلد الفتاة تارة، والمرأة العجوز تارة أخرى. ضحك حمزة. سيكون شيئاً طيباً أن أتذكر أهرا في مدينة غريبة. وخطر للفتى أنه حين يعود قد لا يكون أهرا على قيد الحياة...

- إنهم يتكلمون كثيراً. كثيراً. عبثاً يفعلون ذلك. ما دمتَ تتكلم، فأنت لا تفكر. أما إذا كنت تتكلم دائماً فهذا يعني أنك لا تفكر إطلاقاً. الكلام جيد في وقته، وليس للثرثرة. بل وليس هناك من تتكلم معه بجدية. أن تثير الصخب بكلامك- أهلاً وسهلاً، أما أن تنصت وبعد تفكير تجيب، فهذا شيء نادر. الأفضل أن تصمت. لذلك، يا بني، فإني أحسدك. صحبة الدُلفين شيء جيد، ربما. مؤسف أنه لا يمكن أن تستعيض عن الحياة بين الناس بحياة في البحر، أليس كذلك؟

- نعم، ولكني كنت سأرفض. ما كنت سأستطيع أن أهجر أمّي.

حدّق العجوز بسيجارته المترمّدة وسأل:

- نعم، هذا شيء طريف... لماذا يأتي إليك؟

- بِيْزو؟

- إنّي عجوز، وقريباً سأموت، ولكني لم أعرف شيئاً عن الدلافين طول سنوات حياتي. فأين يعيش دلفينك ومع من؟ هل يستأذن أحداً قبل أن يأتي للقائك، أم أنه لا أب له؟ أم له أب ولكنه متسامح؟ ربما لهذا السبب يتردد كثيراً على الشاطئ، لأنهم طردوه من البيت؟ من السرب...

- بِيْزو؟ كلا... لأي سبب؟

- ربما لشدّة إنسانيته! - ضحك أهرا.

- لو كان مثل مَزاوتش، لكان يمكن طبعاً أن يطردوه، أما هو...

- هل تفكر بالجيش؟ - سأله العجوز فجأة.

- لا أعدّ الأيام. ولكنها تنقضي سريعاً. ما إن يبدأ اليوم حتى يميل إلى الغروب. إنّي أطالب نفسي بأن أعيش بمزيد من الانتباه، وأفضّل أن أحفظ في ذاكرتي كل شاردة وواردة، ولكن لا أستطيع.

- لا بأس... صدّقني إن سنتين ليستا أطول من شهرين. تصوّرْ أنك قد عدت إلى الجلوس هنا، ولكنك كبرت في السن. لا داعي لذلك، لا تطلب أن يمر اليوم سريعاً. بهذا تسرّع خطواتك إلى القبر. اقبلِ الأشياء كما هي.

أحسَّ حمزة بالحرج حين سمع نبرة الحزن في هذه الكلمات، وقرر أن ينهي الحديث بمزحة:

- حسناً، إذا وجدتُ في الجيش شخصاً منحوساً فإني سأقنعه بالمجيء إلى بلدتنا لدزا!

- ولماذا؟

- كيف لماذا؟ سيشتغل عندنا حفّار قبور. لعلّ الناس يتوقّفون عن الموت.

فكّر أهرا قليلاً، وابتسم.

نضجت ثمار الصيف الأخيرة. وفي البساتين سرى السواد في أشجار الزان وعناقيد العنب الروسي. وكبرت ثمار البرقوق واصطبغت بتدرّجات اللون البرتقالي الغامق. وراح الشقيقان

كاغْوَا يقتلعان حبّات البطاطا من الأرض الجافة، ويقطعان رؤوس الملفوف من المساكب.

في طريقه لإيصال سمكة حفَش نجميٍّ كان قد وعد بها طوران، توقف حمزة عند ثلاث أشجار كينا (وراء حوش خاله). كانت هذه الأشجار تعجب الفتى، وكانت الجدّة تينا تشبِّهها بأطفال العائلات الأبخازية الفقيرة. سرعان ما كانت القمصان والسراويل المصنوعة يدوياً تغدو ضيّقة عليهم، تتمزّق بفعل أي حركة غير محسوبة العواقب. كان الأطفال يرتدون ما يشبه بقايا ثياب بالية لا يملكون بديلاً عنها، على غرار أشجار الكينا التي تنمو جذوعها أسرع من قشرها الذي يتشقق ويجفّ، فيتساقط ويبدأ بالنمو قشر جديد ينتظره المصير نفسه. وتظل أشجار الكينا محكومة بالعريِ إلى أبد الآبدين. في الماضي كان أبناء المنطقة يرون في ذلك انعدامَ حِشمة، ويُسمّون هذه الأشجار بالعاريات الوقِحات. وكان حمزة يضحك أيضاً من جشع الكينا إلى الماء، إذ تلتفت أوراقها دائماً بحوافها إلى الشمس لكيلا يجفّ ما فيها من ماء. ولهذا السبب يظل فيئُها ضعيفاً تخترقه الشمس ولا يصلح للاستراحة تحته.

- ما هذا؟ - تعجَّب داود وهو يدخل البوابة.

كانت على الشرفة عربة أطفال.

- هذه لالا، - أجابت هيبلا، وهي تشرب الحليب الحامض البارد مع العسل بعد الغداء.

- لالا؟ هل أحضروا الطفلة مرة أخرى؟

- نعم.

- حسناً، على الأقل أحضروها في عربة أطفال.

كانت هيبلا في الماضي تشتغل في روضة أطفال بلدة لدزا. فكانوا يَعدّونها مربّية جيدة، وكل امرأة تضطر لمغادرة القرية، ولا تأتمن زوجها على رعاية طفلها، تأتي به إلى بيت كاغْوَا. لم يكن فاليرا يحب ذلك، ولكنه كان يلوذ بالصمت.

هذه المرة كانت قريبةُ مارينا قد جاءت في الصباح ومعها عربة أطفال، فأوقفتها عند السياج ونادت هيبلا، ولكنها لم تنتظر مجيء المرأة وأسرعت عائدة، ثم صرخت، والسيارة تسير، بأنها مسافرة إلى مدينة غاغرا لمدة أسبوعين. لم يكونوا يطلبون موافقة من هيبلا، كان الجميع يعرفون أنها لن ترفض. وفوق أنهم لا يدفعون لها مالاً، فإنهم هذه المرة نسوا حتى أن يذكروا لها اسم الطفلة. فاضطرت لتسميتها لالا.

كانوا يطعمون الطفلة عصائر بالحليب، وكانت هيبلا تحكي لها حكايات، وفي المساء كانت تجبِر أهل بيتها الآخرين على المشاركة في ذلك.

- إنها لا تفهم شيئاً! - يقول حمزة. - ما تزال صغيرة!

- إنها تشعر! يجب أن يستمع الطفل الأبخازي منذ الولادة إلى حكايات الآباء. عندما كان عمرك سنة كنتَ تحب الاستماع إلى حكايات أفيرخاتس وأبرسكيل. لم تكن تفهم كل شيء، ولكنك كنت تفرح لنجاحاتهما، وتستاء وتلوِّح بقبضتيك الصغيرتين إذا خانهما أحد.

- صحيح...- يبتسم حمزة ويهز رأسه.

- وهكذا، - قالت هيبلا للالا، - هل تعرفين لماذا تكون أصابع قدم الحمامة حمراء؟ آ؟ - ولمَستِ المرأة أنف الطفلة بأصبعها، فردّت هذه بضحكة ورفعت يديها الصغيرتين. - لأن الحسّاد حين لبُّوا ما كانت تطلبه الساحرة أروبان، وقتلوا شقيقهم الجبار ساصْريفكا، جاءت إليه حمامة وذكَرُها فأوصاهما وهو على فراش الموت، بأن يبلِّغا سلامه ومحبّته إلى أمِه ساتانيه غواشا. فلبّى زوج الحمام طلبه وطار مسرعاً يخترق الغيوم. وظلّت أقدامه مصبوغة بدم ذلك القوقازي العظيم. ومنذ ذلك الحين ما من فرخ حمام يولد إلا وأصابعه حمراء تخليداً لذكرى تلك الواقعة.

صرخت لالا فرحاً وتابعت تحريك يديها الصغيرتين.

- ولما جاءت الذئاب وأشفقت على الفارس وهو يموت، وضع ساصْريفكا أصبعه الخنصر على رقابهم وقال: «لتكن رقابكم بقوّة خنصري هذه!» لذلك تتمتّع رقبة الذئب بكل هذه القوة!

- لقد تعبنا أنا وحمزة من سماع هذه الحكايات في طفولتنا، يا أمّي، أحقّاً أنك لم تتعبي من تكرارها؟ - سألها داود وهو يبتسم.

- كيف تتكلم مع أمك بهذه الطريقة؟!- استاءت الجدّة تينا.

استقبل بِيْزو كلاً من حمزة وداود كما كان يفعل من قبل. لم يكن يرافق هذين الصيادَين دائماً، ولكنه كان يظلّ قريباً منهما، وتظل زعنفته ظاهرة لهما. وحين كانت طيور النورس تطير صوب الدُلفين كان الشقيقان يعرفان أنه يحاول اصطياد سمكة بوري حمراء ماهرة، أو حتى سمكة حفَش نجمي.

ذات مرة تسبّب بِيْزو بخوف شديدٍ للكلب القبطان (الذي كان، حتى من غير تخويف، قد هدأ واستكان في الأشهر الأخيرة)، فظلّ مدة طويلة يرفض المشاركة في الصيد ويبقى في البيت. كل شيء بدأ من لعبة بسيطة. كان حمزة والدُلفين يتراشقان بالماء وقد اختبأ أحدهما في القارب، والآخر في البحر. وكان الكلب باسيا يراقب صامتاً ما يراه وهو على المقعد في مقدمة القارب. وإذا بالدُلفين يتوقف قريباً من الكلب، وراح الاثنان يتبادلان النظر فيما بينهما بفضول. مدّ باسيا أنفه نحوه وهو يتشمّم ويهزّ ذيله بهدوء. لم يأتِ بِيْزو بأيّ حركة، ولكنه سرعان ما غطس في الماء ثم ظهر ونظر إلى الكلب، وعاد فغطس مرة ثانية. وكرر ذلك ثلاث مرات. كان باسيا يزيد هزَّ ذيله قوة، وهو يعتقد أن الدُلفين يلاعبه. وحين خرج بِيْزو من الماء مرة أخرى، ارتفع أعلى من

المألوف. وكان في فمه قنديلُ بحر، فقذفه بتلويحة من فكّه صوب القبطان باسيا وأصاب خطمه مباشرة... زعق الكلب مذعوراً، وقفز يجري ببراثنه على الأرضية الألومينيوم ويهبط إلى قاع القارب يهرّ شاكياً، ويختبئ وراء كيس بحّارة مشمّع. ولم يخرج من مكمنه قبل العودة إلى الشاطئ. وظل قنديل البحر في القارب. كان الدُلفين مسروراً، فابتعد قليلاً وبدأ يقفز، ثم سبح على ظهره، فبدا بطنه الأبيض ببقعه المرمرية الوردية اللون. وضحك الشقيقان كاغوَا بصوت عالٍ حتى التعب، وهذا ما زاد من إحساس باسيا بالإهانة وهو جالس في مخبئه المظلم الرطب.

كان الصيف يدنو من نهايته. لن تخفَّ حرارة الشمس قبل قدوم نوفمبر، غير أن الأيام الغائمة تزداد منذ الآن. ومن سفوح القوقاز الجنوبية ستأتي الأمطار.

لم يتغير نمط حياة العائلة ولا أحاديثها، ولكن حمزة كان يكثر من الصمت وهو ينتظر ساعة الفراق، فيضع رأسه على يديه، وينصت إلى الأصوات والكلمات، ويراقب سير الحياة.

كانت مامْكا على جريِ عادتها تلحس باسيا الذي كفّ عن مقاومة عادتها هذه، ولا يعترض حين تنعس وتتكوّر ملتصقة ببطنه.

كان ميستان جالساً على الطاولة، بالقرب من منفضةٍ للسجائر يختلط ماؤها الوسخ مع أعقابٍ اسودّت. وكان بالقرب من الطاولة عربة أطفال. كانت هيبلا تنشد حكاية من حكاياتها بصوت خفيض وهي تخيط شبشبها، فيما الكلب ينظر إلى مكانٍ ما تحت سقف الشرفة. نظرت لالا إلى الخارج، ومالت نحو ذيل ميستان الرمادي الناعم ولمسته بأصبعها. ومرة أخرى عاودت الطفلة لمسه، فضمّ ميستان ذيله بين قدميه بهدوء، وبات على الطفلة أن تميل أكثر كي تلمسه. ابتسمت لالا وتمايلت حتى بلغت قبضتُها القط نفسه، وسقطت أخيراً من عربتها على الأرض، فتعجّبت، وتلفّتت حولها وبكت.

- ماذا فعلتِ بنفسك؟ - صاحت هيبلا شاكية وهي تضع الشبشب جانباً.

ضحك حمزة.

على الطريق كانت الدجاجة تَقرِق. وكانت قبل أسبوع تضع بيضها، خفية عن أهل البيت، تحت شجرة السنديان القريبة من مكانٍ كثير الحطب، ثم جثتْ تحضنها. وعندما رأت الجدّة تينا ذلك صرخت عليها، ووجهت لها بضع ضربات سريعة كسرت البيض على الأحجار. فراحت القَرِقة تندب وتبحث عن بيضها تحت الشجرة. وكانت أحياناً تجثم في المكان الذي كانت تخفي فيه البيض، وتظل جاثمة عدة ساعات هناك. كانت الآن تمشي على الطريق، تطلق أصواتاً غامضة، وبقلق تدير رأسها يميناً وشمالاً، تتفحّص بنظرها الأحجار، وجذع الشجرة، والسياج.

- يا للمسكينة، - همست الجدّة تينا. - لا بأس. إنها ستسلّم بما جرى، وتعود إلى البيت.

الدجاجات الأخريات مشغولات الآن بشيء آخر. وكان الديك يجري خلفها، فيقترب، متظاهراً بالبحث عن العشب والحشرات، ثم يثب فجأة على محبوبته بينهن، ويرفرف بجناحيه، ويرتفع صخبٌ يملأ الحوش. فيما هي تركض أمامه بطريقةٍ مضحكةٍ وتدور في البستان هرباً منه. وتنظر إليها الدجاجات الأُخريات بفضول وهي تنظر لحظة يلتفت فيها الديك إليها.

- فليأخذْكِ الجقل!.. - صاح فاليرا حين مرقت القَرِقة بين قدميه منفوشةَ الريش، فاندلق الماء من سطل كاد يسقط من يده.

ابتسم حمزة مرة أخرى.

وتلمّس الفتى على كتفه اليمنى ندوباً صغيرة خلَّفتها عضةُ بِيْزو. «إنه حقير طبعاً، ولكن.. هل من أحد غيري عضّه دلفين؟! بل وهي ذِكرى... طيّبة!» ودار في خلَد حمزة أنه كان على الدُلفين أن يعضّه بقوة أكبر لتبقى الآثار حتى الشيخوخة.

استأنفت هيبلا خياطة شبشبها.

من شدة العتمة لم يلحظ أحد قدوم السُحب. ففي المساء ترامى من الجبال هدير رعد ضعيف. ولمعَ البرق مرّتين، وسقطت قطرات مطر، فتمايلت الأشجار، ثم سرعان ما همد كل شيء. وأعقب ذلك رعد حقيقي، وهطل وابل من أمطار شديدة وغزيرة.

شرع أفراد عائلة كاغْوَا يركضون في الحوش، يُغلقون درفات النوافذ، يُقفلون المستودع، وعنبرَ الذرة الصفراء، وقنّ الدجاج. وصعد فاليرا إلى سطح الحمّام خشية أن تسقط البراميل الموضوعة هناك فلا تعود صالحة للاستعمال. فرح حمزة وداود بالمطر، وأسرعا يجمعان عن الطاولات كل ما هو خفيف ويمكن أن يطير. وأبعدا عن طريق الريح غطاء الطاولة، والصّحون، ومنافض السجائر، ومجموعة الإبَر التي تركتها هيبلا. كانت لالا نائمة في العربة فاستيقظت وبكت، ولم يكن هناك وقت ليهدئها أحد.

فاحت رائحة أوراق الشجر والأرضِ الرطبة، ووقفت الجدّة تينا في المطبخ تُجيل النظر. ومن بعيد ترامت من البحر صرخاتُ صيادين كانوا مشغولين بشِباكهم.

كان قصف الرعد في السماء قريباً جداً، يصمّ الآذان، وصار ضرورياً أن يبتلع المرء لُعابه مرات متتالية. في هذه القعقعة المدوّية لم يكن ممكناً أن تسمع الكلمات التي تقولها. وكان وميض اللمع والبرق يضيء جبالاً من السُّحب الجبّارة. كان الشقيقان كاغْوَا متشوّقين لهذا الطقس العَكِر، ولم تكن بهما رغبة بالعودة إلى البيت، فجلسا على العتبة يراقبان العاصفة المطرية ويُنصتان إليها.

- دُقَّ على العنبر، يا داود! - صاحت الجدّة تينا.

- جدَّتي...

- هيّا، هيّا!

انحنى داود وركض صوب مستودع الذُّرة الصفراء، فدقّ على جداره ثلاث مرات طلباً لحظٍّ سعيد.

خفّ وابلُ المطر، فابتعد الرعد وأطلق هديراً عظيماً وانداح وراء بيتسوندا. لم يبقَ إلا مطر ناعم، وتراءى الشفق.

تساقطت قطرات على السطح.

عادت العاصفة المطرية. ومن جديد راحت تتدافع فوق لذْزا مثل شظايا صخور هائلة الحجم. فهطل المطر غزيراً، وتزايد اللمع والبرق، ووجد داود أن البرقة الواحدة تدوم من الوقت ما يكفي لأن يغمض المرء عينيه ويفتحهما سبع مرات. وفاحت رائحة الأرض المبللة، كثيفة، وقوية، وانخرط جُنْدُبٌ في الجُنينة بصريرٍ هستيري.

بلغ الضجيج حدّاً وكأن زيتاً صُبَّ على آلافٍ من الصفائح الساخنة حتى الاحمرار. وانتشرت البرودة في الجو.

بين دقيقة ودقيقة كانت العاصفة المطرية تغادر البلدة تارة، وتعود تارة أخرى راغبة بأن تُظهر قوتها للمنطقة كلّها. والقوقازيُّ الجبلي الذي كان يسير في النهار من معبر تشخا الجبلي الأخضر إلى قمم تصيبيشْخا العالية الجرداء، يخوض نهر (بظيب) فيثير فيه الزبد، ويخيف سكان القرى الصغيرة، ويدبّ القلق في الأكواخ الخشبية المنعزلة النائية، ثم بات الآن يرتدي القفطان القوقازي الأسود الضيق، العالي القبة، يرقص بسيفه اللمّاع في فرح جنونيٍّ على الشواطئ الفسيحة، يدمِّر أشجار التنوب والصنوبر القديمة.

كانت السماء تتفجّر وتنهار فتتساقط جلموداً في هاوية. وكانت الريح نفسها تهدر وتزمجر حول كل شخص سواء أكان جالساً، أقفل على نفسه الباب، أو واقفاً، مسحوراً، خارجه. وكان زجاج النوافذ يصطكّ، والريح تعصف بالشجر. ووراء بوابة الحوش كان الشقيقان تصوغبا يمرّان راكضين، يرتدي كل منهما قلنسوة من الجوخ عاليةً حادّةَ الرأس.

لم يعُد البرق يظهر من خلال ثياب الظلام السميكة، ولكنه كان يصبغ السماء كلها بلونٍ رمادي.

- أتساءل، كيف أحوال بِيْزو هناك؟ - سأل حمزة.

- ماذا يهمّه؟ - قال داود. -لا توجد عواصفُ تحت الماء.

- هذا صحيح...

ثم انقسمت العاصفة المطرية، فذهب جزءٌ منها غرباً عبر الشاطئ، وارتفع الجزء الآخر نحو الشمال الجبلي. كانت كل جهة من جهات السماء تتلألأ كيفما اتّفق، غير أن الرعد ظلّ واحداً، يهدر

أمواجاً على عجَل، لا يكاد يعلن عن دُفعةٍ من المطر حتى تتبعها دفعةٌ أخرى.

انطفأ الوميض الأخير، ولكنّ وابل المطر لم يتوقف.

بحلول الثانية ليلاً هدأ كل شيء. واستأنف المطر هطوله في الصباح، إلا أن العاصفة المطرية لم تعُد.

استمرّ المطر الخفيف طول النهار. كان ميستان يستنشق الهواء الرطب. وتحت البوابة تشكّلت نُقرةٌ تجمّع فيها الماء، لم تزعج أحداً لأنه ما من أحد كان يخرج من بيته. لم يكن هناك عملٌ في يوم كهذا. وفيما كانت الجدّة تينا التي تنام في البيت، جالسة الآن مع هيبلا في المطبخ، تفصِّصان البذر بأصابعهما، كان خرير الماء مسموعاً وهو يتدفّق شآبيبَ قويةً عن السطح. وكان فاليرا مستلقياً في السرير يعيد قراءة قصص لاكِرباي. ولأنه يعرف أقوال أبطال هذه القصص وحركاتهم، كان كثيراً ما يذهب مع أفكاره بعيداً، فلا ينتبه أحياناً إلا وقد قرأ بعينيه فقط نحو صفحتين غيرَ واعٍ بشيء مما فيهما. وكان يحدث أن يغفو تماماً تحت وقع المطر الرتيب.

- سأذهب، - ابتسم حمزة.

- إلى أين؟ - استغرب داود.

- إلى السباحة.

- الآن؟

- نعم.

لم تكن ساعة الجدار قد بلغت الثانية عشرة ظهراً تماماً. فألقى حمزة على كتفيه معطف أبيه الواقي من المطر، واعتمر قبّعة عالية قديمة وجزمة، وخرج إلى الشارع. كانت البلدة خاوية. والسحب الرمادية كثيفة ومنخفضة. وفي الجو تنتشر رائحة المطر وبعض الشجر.

تحوّلت الحُفَر في الطريق إلى بحيراتٍ كثيرة العدد تتّصل فيما بينها بمساربَ مائيةٍ متعرّجة، وصار الخندق الموازي للطريق نهراً صغيراً وسِخاً جعلته التربة أسوَد اللون يجرّ معه ما يصادفه من سقْط المَتاع أوراقاً وأغصاناً وقشورَ شجر.

والبحر الذي كان خالياً من الموج تقريباً بات شائكاً، تدور على سطحه آلاف من أعمدةٍ تومض، تظهر حولها دوائرُ صغيرة وتختفي على عجِل.

كان الشاطئ مُقفِراً. والجبال يحجبها الضباب، فلا يترك للنظر إلا الهضاب القريبة، وهذا ما جعل لدْزا تبدو عالَماً منفصلاً لا ينتمي إلى أحد، يجوب المحيطَ على هواه.

خلع حمزة ثيابه، ولفّ أغراضه بالمعطف ووضع فوقها أحجاراً، ووقف منتصب القامة. كان الهواء خفيفاً، ولكنّ الجسد العاري أحسّ بالبرد. فأسرع الفتى ودخل الماء، فوجده دافئاً ولطيفاً. استلقى حمزة على الحصى وخُيّل له أنه في فراش ناعم، وثير. وراح يتأرجح على موجة خفيفة. أحقاً أن المكان الذي سيذهب إليه لن يكون فيه بحر؟ لم يكن حمزة يصدق من قبل أن هناك مناطقَ تختلف عن وطنه أبخازيا. لقد أمضى داود خدمته العسكرية في تشيتا السيبيرية، وكان يحكي عن تلك الأماكن الغريبة. فكان أخوه الصغير يتعجّب، ولا يستطيع أن يصدّق كيف يمكن أن يعيش الإنسان شهوراً لا يرى فيها الشمس الدافئة، وأن يمشي في كثبان من الثلج يمكن لأيّ خطأ أن يجعله يغطس فيها تماماً كما في مستنقع. كذلك كان داود يتحدّث عن سهوبٍ في وسط روسيا لا يصطدم النظر فيها بجبال، بل يضعف بسبب آفاقها الرحيبة كآفاق البحر...

لم يكن هناك قناديلُ بحر. والمطر يتساقط مثل الضرب بإبَرٍ كلِيلةٍ على الرأس. نهض حمزة وشعر ببرد الهواء.

«أجل. لا مَخرِج من هنا الآن»، ابتسم وهو يعود ليحتمي بلحاف المياه الدافئ.

شرع الفتى يسبح، ويغطس، يسدّ أنفه بأصابعه ويراقب من تحت الماء كيف ينهال المطر من غير توقُّفٍ على البحر.

ظلَّ يحافظ على مستوى سطح الماء بين أنفه وعينيه وهو ينظر إلى الفضاء المضطرب. ثم غطس وانقلب هابطاً صوب القاع يقلِّب الأحجار المسطحة بقدميه. وعاد إلى مكان استراحته قريباً من الشاطئ، فوضع رأسه على الحصى، وغطّى وجهه ليحميه من حبات المطر المتساقطة عليه. «لقد فوّت داود على نفسه فرصة المجيء. لعلّه لم يسبح يوماً تحت المطر. يا لَلغباء! ما أروعها من فرصة!».

ظلَّ حمزة يسبح غيرَ راغب بالخروج إلى برودة الشاطئ. سدّ أنفه وانقلب في الماء كمن يعمل حركة (سالتو)... شيءٌ مرعب. لحظةٌ سوداء. دقّات قلبه قوية، قاتلة. كاد الفتى أن يبتلع الماء، تراجع... إنه بِيْزو لا أكثر.

صعد حمزة من تحت الماء، وتنفَّس بصوتٍ عال.

- بِيْزو! يجب عليك أن تنبّهني!

اقترب الدُلفين من الإنسان، وصفّر.

- طيّب؟ وماذا؟

اطمأن حمزة، فلمس الدُلفين وتعجَّب من إعادة ما حدث مرّة من قبل، ومرة أخرى كاد من شدة خوفه يوجِّه ضربة لصديقه. صحيح أن الضربة ستكون خفيفة، ناعمة لأنها ضربة بالماء، ولكن...

- فربّما ظننتُ أنك سمكة قِرش، - أخذ كاغْوَا الصغير يبرّر موقفه وهو يتلمّس حافّة زعنفة ظهر الدُلفين. - شيء غريب... فقد نسيتُك، ونسيتُ أنك يمكن أن تأتي...

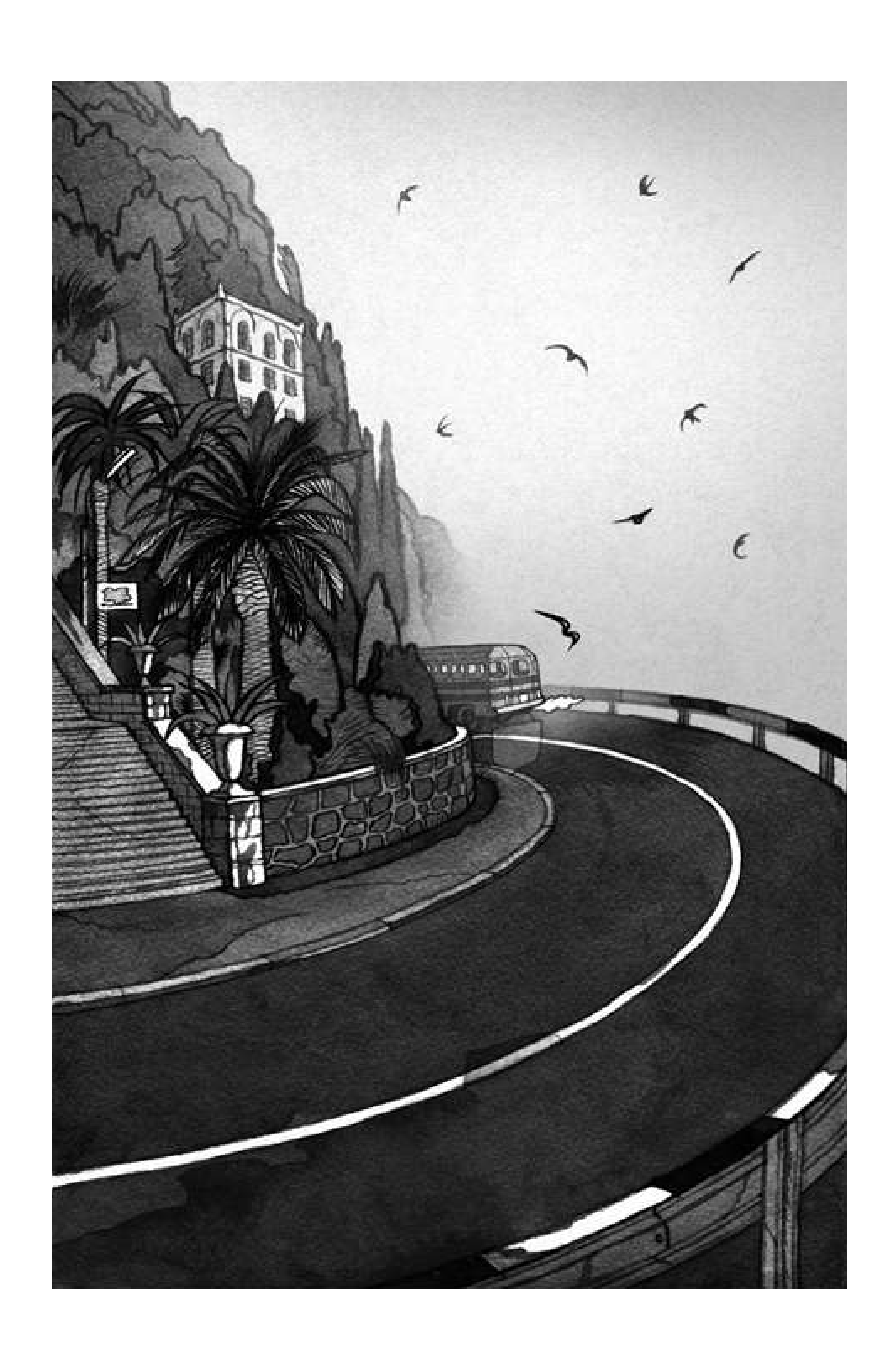
أطال الفتى والدُلفين فترة اللهو فيما بينهما. فراحا يسبحان ويدوران معاً. وتجوّل الدُلفين في الخليج حاملاً على ظهره حمزة الذي تعوّد على هذا النوع من التجوال، وتعلّم كيف يتحكم بأنفاسه. ثم عاود الدُلفين لعبته المفضلة بالاختفاء تحت الماء، ومحاولةَ الظهور من جهة غير متوقعة. أحياناً كان كل منهما يفتح فمه فيجمع حبّات المطر، ثم يقذف بها صاحبه. وراح الفتى يمرّر أصابعه على أسنان الدُلفين المستديرة، ويضع كفَّه على فتحة تنفّسه ليشعر كيف تكون عملية الشهيق والزفير عنده.

وحين يتعب حمزة يخرج إلى مكان استراحته فوق الحصى. فيخرج الدُلفين وراءه، يدير ظهره للمطر ويدسّ أنفه في رِجل الفتى كأنه يدعوه للعودة إلى اللعب.

- بِيْزو! ماذا تفعل؟! لم يبقَ عليك إلا أن تخرج إلى الشاطئ أيضاً! هيّا، تعالَ إلى هنا، لا يجوز لك أن تخرج إلى هذه الحجارة!

يبتعد بِيْزو مكرَهاً، لكنّه سرعان ما يعود ليدعو حمزة للهو مرة أخرى.

# الفصل الثالث
# الخريف



- لا ذنْبَ لهم! يا غاليتي! لا ذنْب لهم!

- ولكنْ أنت نفسكِ تقولين، يا جدّتي تينا: من أركبَكِ عربته غنِّي له. - اعترضت هيبلا.

- هذا صحيح. لا خلاف، لكن الناس البسطاء ليسوا مذنبين. أيام ستالين نقلوا الجورجيين إلى هنا ليقال فيما بعد «انظروا، إن الأبخازيين أقلُّ منهم عدداً، وهذا يعني أن أبخازيا جورجية. وانتهى». إنها السياسة. الفلاحون والصيّادون لا يشتغلون بالسياسة. الجورجيون الذين نقلوهم إلى هنا ليسوا أسوأ من الأبخازيين. إنهم إخوَتُنا، وما تبقّى سياسة. هناك من له مصلحة في أن يحدث ذلك. أعرف أن أولئك الجورجيين لم يكونوا راغبين بالمجيء إلى هنا. لقد أجبروهم على ذلك بالقوة والتهديد. وبعد أن نقلوهم أحرقوا بيوتهم في جورجيا لكيلا يستطيعوا الهرب والعودة إليها! ماذا يفعلون؟ هل يُلقون بأنفسهم إلى الهاوية؟ لقد اضطروا أن يعيشوا هنا في لذْزا. لو كنّا نحن أنفسنا أكثر ذكاء لَما تخاصمنا ولا قاتلناهم، بل كنّا تصادقنا معهم.

- ولكننا لا نقاتلهم. نحن فقط لا نخالطهم.

- صحيح... مثل الجقلان والذئاب. لا نتعارك، ولكننا نزمجر على بعضنا بعضاً بصوتٍ خفيض. ليس هذا تصرفاً صحيحاً...

كانت الجدّة تينا تتكلم بصوت عالٍ، متقطّع، كأنها تكتم بكاءها، فترفع يديها وتهزّ برأسها. لم يمنعها ذلك من التفاعل على الفور مع أيِّ نكتة تُروى، أو نضحكُ لها، أو أن تردّ عليها بنكتة أخرى، ثم تستأنف الكلام بصوتٍ رقيق يكاد لا يُسمع وهي تتحسّر على مصير المهجّرين الجورجيين، وعلى طوران الذي جُرح في حادث سيارة وهو في طريقه إلى غوداوتا.

لم يكن حمزة يهتمّ من قبلُ بهذه الأحاديث، ولكنه راح الآن ينصت باهتمام إلى كل كلمة فيها، يراقب حركات الأيدي، ولا ينطق بأي حرف.

كانت عائلة كاغْوَا تشعر أن ابنها الصغير غادر البيت قبل السن المناسبة بوقتٍ طويل. إذ فقدَ حمزة مرَحه المعهود، وقلّت بسماته. أصبح معتاداً أن تراه حزيناً، ولكنْ ما من أحد طلب إليه أن يكشف عن سبب حزنه، أو واساه، فقد كان واضحاً أن توجيه أسئلة إليه سيقوّي حزنه، وربما يزعجه.

حافظ حمزة على مرَحه مع الدُلفين، ولكنه كان أحياناً يطيل النظر إلى خطم صديقه. ولم يكن الدُلفين يعترض على ذلك، بل كان يسبح بمحاذاة القارب، وأحياناً يبلل رأسه بالماء.

- اسمعْ، ما حاجتك إلى هذا الجبين العريض؟ - ابتسم حمزة، وأردف: - ألن تتذكّرني، يا تُرى، عندما أغادر؟

وفجأة تَثقل أنفاسه، ويزداد الضغط على صدره ويرتفع مثلَ عمود إلى حنجرته. فتح الفتى عينيه على سعتهما وشدّ فكّيه. ثم أدار ظهره وتذرّع بأنه ينظّف جزمته، فيما كان في الحقيقة يخفي

دموعه.

في المساء، وهو يستسلم للنوم، يتخيَّل حمزة الدُلفين وخطمَه الممدود وعليه ملمح بسمة لا تفارقه. يحرِّك الفتى أصابعه في الظلام ويتذكر جلد بِيْزو الناعم. لقد بات كثيراً ما يراه في نومه.

«لا أفهم الحياة. وعموماً... ولا هذا العالم. ما إن جاء الصيف حتى قلت لنفسي إنه لا حاجة بي للتفكير بالجيش، وما يزال أمامي عدة أيام... ها قد جاء الخريف. وبسرعة كبيرة! لا أحب أن أنظر إلى الساعة. فالعقرب يدور ببطء، ولكنه لا يتوقف... إنه تناقض. لقد تعرفت إلى بِيْزو في شهر مايو، ويُخيّل لي أننا معاً منذ عدة سنوات. بل وبدقة أكبر، ليس سنوات... فالمسألة هنا لا تكمن في سنوات أو مقاييسَ أخرى، ففيمَ إذاً؟ هذا ما لا أعرفه، وإن كان يبدو لي أني أحسّه... يا إلهي، ما أصعبَ كلَّ شيء...».

تقلّب حمزة على سريره، واستكان لفترة طويلة لعلّه ينام، إلا أنه لم يغفُ، وأضناه العذاب. وسمع داود حركة أخيه القلقة، إلا أنه لم يسألْه عمّا يحدث معه، وتظاهر بالنوم.

«لا أستطيع أن أفهم ما أفكّر به لأني لم أعانِ من حالة كهذه من قبل. ربما لولا الجيش لَما فكرت يوماً بشيءٍ من هذا القبيل. لَكان ذلك أفضلَ لي، بالطبع... لا حاجة بي للتدقيق مرة أخرى بمشاعري وأفكاري. يبدو أن هذا ما حدَّثني عنه العجوز أهرا. نعم، كيف لي... فالجميع يؤدّون الخدمة العسكرية! وما من أحد يبكي بسبب ذلك. فما لي ضعيفٌ إلى هذا الحد؟ أجل، منذ العام الماضي بدأ زمنٌ جديد و.... لقد سمعت... يجب أن أكون رجلاً. لقد حارب أجدادنا منذ الطفولة وحتى الشيخوخة من دون أن يشْكوا... بِيْزو. إنّي لن أراه بعد الآن».

كان حمزة يدرك أن هذه الأيام هي الأخيرة في عمر صداقتهما. لن يقدّر لهما أن يلتقيا بعد الآن. ولن يسبحا معاً أبداً. لن يسمعا تلك التصدّعات الغريبة تحت الماء، ولن يتجوّل على ظهر الدُلفين، لن يشعر بتلك الوخزات الدقيقة في ظهره، لن يتظاهر بالخوف، ولن يرى كيف يفرح الدُلفين بذلك. إنه لن يرى بِيْزو بعد الآن.

«لا حاجة هنا إلى التفكير. إنه سوف ينتظرني شهراً، وربّما شهرين، ولكن ليس عامَين. حتى تاريخ عودتي يكون قد رحل إلى مناطق أخرى. سيجد لنفسه أصدقاء بحْرٍ طبيعيين...».

كانت الغرفة ضيّقة، والجوُّ فيها خانق. نهض حمزة. خرج إلى الشرفة. أطال المشي حافياً عبر العشب البارد. استغرب باسيا من خطواته، فعوى وأطلّ برأسه من بيته، ولكنْ ما إن وقع نظره على صاحبه حتى عاد إلى النوم.

«توقّفْ. هذا غباء. لا حاجة للأسف على ما لن يكون. يجب أن تفرح لِما كان، فقد كنتُ محظوظاً بلقائي مع بِيْزو. كم كان عدد المحظوظين مثلي؟ لقد تكلمتُ مثل الجدّة تينا...» - ابتسم حمزة، شعر بالراحة. ذهب إلى المطبخ ليشرب ماء، ثم عاد إلى الفراش لينام.

على الأشجار والشجيرات المتشابكة نضجت أولى ثمار الخريف، فتدلّت ثمار الزان متطاولةً مثل قطرات الماء، مفعمة بالحلاوة. وراحت هيبلا بعد الغداء تقطف ثمار الفيجوا وتصفّها خضراء طريّة في صناديق خشبٍ صغيرة. ثم يأتي دور الرجال ليغمروا هذه الثمار بسكّر يكبسونها به. وكانت ثمار الأكّيدنيا متأخّرة في النضج عن جاراتها، وما تزال بعدُ قاسية وحامضة.

ازداد هبوب الرياح الجبلية. أخيراً تخلص نهر «بْظيبْ» الصاخب من مياه الثلج الذائب، وبات صافياً مثل أخَوَيه القويين يوبشارا وغيغا. واحتفظ البحر بدفئه، لكنّ الشمس لم تعُد الآن مرهِقة بقيظها المتكرر. في هذا الطقس يطيب العمل وتطيب الاستراحة.

اختفت مامْكا، لم تظهر منذ يومين. ولم يُبدِ باسيا حزناً ولا فرحاً، بينما كان ميستان راضياً، يتلقّى كمّيات ثابتة من السمك والخبز المطليّ بالصلصة. كما إنه تخلّص الآن من رؤية تقديم الطعام لمامْكا بطريقة كانت تثير سخطه.

واستردّت الأمّ ابنتها لالا.

صارت أحاديث الغرباء حياةً لحمزة. كان يستمع إلى كلِّ الأحاديث بقدْرٍ واحد من الانتباه. إنه الآن يتخيّل كيف سيكون البيت في غيابه. «هل، يا تُرى، سيتذكرونني كثيراً؟ ربما تطيّراً لن يلفظوا اسمي، سيثرثرون أيضاً عن شيء حياديّ... ومعهم حق».

في مساء يوم ماطر كانت الجدّة تينا تسلق (تخكيمالي) في قِدْرٍ وهي تكرّر بصوتٍ عالٍ جُمَلاً ذات أهمية خاصة، وحكت خبراً سمعته من طوران. كانت سلال البرقوق منتشرة عند قدميها، وكان أفراد عائلة كاغْوَا جالسين حول الطاولة يستمعون إليها طائعين.

أُو- و! يا لَلخبر الذي رواه! إن عائلة أنتيشيا سوف تتذكر هذا الحدث وقتاً طويلاً. أُو- و! - وراحت الجدّة تينا تلوّح تارة بيدها اليسرى الفارغة، وتارة بيمناها وفيها ملعقةٌ خشبية تتساقط منها على أرض المطبخ قطراتٌ كبيرة من الصلصة التي لم تكن جاهزة بعد. - كان ذلك شيئاً يستحقّ أن تسمعه وأن تراه! فقد دُعي طوران لحضور عرس غْفاج لاكوبا من كولانيرخوا، وعروسه أنتيشيا، لعلّها من أتشاندارا. وكان عرْساً- أُو- و! - وهزّت الجدّة تينا رأسها هزّة عريضة جعلت حمزة يبتسم بصوتٍ خفيض. - كان كل شيء على مستوى رفيع! الغنى! لاكوبا! الكنبات مغطاة بقماش من صوف الحملان، وأغطية الطاولات موشّاة بالزخارف أُو- و! إنهم سيتذكرون هذا العرس زمناً طويلاً!

كان الدلف يتساقط من السقف. والهواء بارداً ورطباً. والسماء سوداء خالية من النجوم. وحمزة جالس في الزاوية. لم يكن لهب النار اللعوب ينظر إلى الفتى تقريباً، فتظنّه خيالاً أكثر مما تظنه إنساناً حيّاً. «يا لَلأفكار! عبثاً تفعل هذا، - جال في خاطر هيبلا. - هل يعجبك هذا الدور؟ لقد تعذَّب داود أيضاً، ولكنه لم يصمت... بالعكس، كان يريد أن يتكلم كثيراً. عبثٌ ما تفعل». والتفتت المرأة إلى ابنها الصغير، كانت تعرف أنها لن تزعجه بالبَوح عن أفكارها أمامَه.

كان داود يتسلّى بالسكّين، يحفر بها على لوحٍ خشبي عريض زخرفاتٍ مسنّنة. وكان فاليرا يفصّص البذر بأصابعه ويشرب العصير.

- مائدة عامرة، ثلاثمئة ضيف، توزعوا على ثلاثة بيوت. كانت العروس في السادسة والعشرين، وغْفاج في الثانية والأربعين، أروع ما يمكن! كل شيء على ما يرام. لهذين الزوجين يقال: بالرفاء والبنين. لقد ورث غْفاج عن جدّه بيتاً وكرْمَ عنب في غوداوْتا، وكان يعتزم الانتقال إلى هناك مع عروسه، لا ينتظر إلا العرس ووداع مسقط رأسه.

ساعد داود الجدّة بتحريك الحطب تحت قدور الطعام الكبيرة، وانتشرت حرارةٌ عالية في المطبخ، فكان يطيب له أن يرفع رأسه ويشعر بحرارة الحطب خلفه تلسع ظهره.

- استمر الفرح ثلاثة أيام. بدأ الضيوف يغادرون، فعادوا يقدِّمون التهاني مرة أخرى ويتمنّون للعريسين حياة سعيدة. طوران بدوره كان أيضاً يعتزم الرحيل، وفجأة! - تناولت الجدّة تينا ملعقةً من القِدر، فقرّبتها من شفتيها وقالت: - هذا هو المطلوب تماماً! ما ألذَّه... غداً يجب تقديمُ هذه الدجاجة وقت الغداء. زحزح فاليرا وداود القِدر جانباً لكيلا تفسد النار طعم التخكيمالي الناضج. وجلست الجدّة تينا على المقعد وأردفت وهي تدلّك ركبتيها:

- في الصباح... وحسناً فعل العريس إذْ صبر. كان يستطيع أن يذهب في الليل، ولكنْ لا! إنه فارس! في الصباح ذهب غْفاج بالسيارة إلى قرية العروس مباشرة. دقّ البوّابة فخرجت إليه أم العروس أنيتشبا ووالدُها متعجّبَين من هذه الزيارة المبكِّرة. وحين شاهدا ابنتهما مكدَّرة كالتراب اليابس أدركا أن هناك خطب ما. هذا يعني أنه رأي منها ما لم يعجبه. كان الوالدان واقفين صامتين. قال لهما غْفاج: «خذا ابنتكما، إنّي أردُّها لكما. لا أريدها زوجة لي».

- أُو- و! ورفعت الجدّة تينا يدها اليمنى وزمَّت شفتيها. - قال هذه الكلمات وكأنه قطعةٌ من حجر، لم يلدْه أب وأمّ، وإنما قَدَّه أينار من حديد. كم كان صعباً هذا الموقف! كم فيه من ألمٍ وعار للفتاة وعائلتها! لم يعد أمامها إلا طريق واحد، أن تُلقي بنفسها إلى النهر وتغرق. فما من أحد سيتزوَّجها. حتى اللص والمجرم لن يلتفيتا إليها! أجلْ...

رُويت هذه القصة ثلاث مرات أخرى. جاء طوران وحكى ما رآه بكلمات مختلفة، ولكنْ بالمشاعر نفسها. مشاعر سوف تضعف حين يكرِّر سردَها على مسامع آخرين جددٍ لسابع مرة أو لثامن مرة؛ ولكنّ التفاصيل ستصبح أقلّ عدداً في المرة العاشرة، أما في المرة الخامسة عشرة فسينفض طوران يده ويقول إنه ما من شيء ذي بال قد حدث في الحقيقة.

لم يأتِ طوران، شقيق هيبلا، لزيارة عائلة كاغْوَا من أجل النميمة فقط، بل وأيضاً ليقايض الطحين والكيروسين بسمَكٍ طريّ. فمصنع السمك لم يدفع لفاليرا وداود أجْر الشهرين الماضيين. يقولون إن إحدى ثلاجات المصنع قد تعطّلت فأُنفِقت أجور العمال على إصلاحها.

واستاء الصيادون الأبخاز لأنهم وحدَهم مَن لم يحصل على أجره، بينما حصل الميكانيكيون والخرَّاطون وغيرهم من الجورجيين على مستحقاتهم كاملة من دون تأخير.

فـي اليـوم التالـي أعـادت الجـدّة تينا رواية ما حـدث على مسـامع مارينـا ثـم حفيظة.

«كان أهرا على حق. الناس يتكلّمون كثيراً»، - جال في بال حمزة. - لا يمكن أن يعيش الناس بغير أحاديث عن حياتهم، ولكن ليس ضرورياً أن يثقلوا هذه الأحاديث بتفاصيل من وحي أفكارهم أو خيالهم. ولكن إذا لم يشغلوا وقتهم بهذه الأحاديث عن حياتهم، فبماذا يشغلونه؟ هذا ما لم يكن الفتى يعرفه.

- لعلّ الأفكار ليست أفضلَ من الكلام؟ إن لم تنشغل بالكلام، تنشغل بالأفكار... أليس كذلك، يا بِيْزو؟

كان حمزة مستلقياً في آخر القارب يداعب الدُلفين بيده، فيما الدُلفين يلوِّح برأسه فاتحاً فمه، ولكنه كان مستأنِساً، لا يبتعد، ولا يطالب باللعب معه، كأنه يفهم أن الفتى محتاج لأن يتحدث عن معاناته ثم بعد ذلك يلاعب صديقه البحريَّ بسرور.

هل تعلم أني يطيب لي أحياناً أن أفكر بشيء ما... بشيءٍ حكيم، ضروري. ولكن... لا أستطيع. لم يحدث لي مثل هذا من قبل. لكأنّي يا بِيْزو. ليتني كنت قادراً فآخذك إلى تلك الغرفة. هناك كنتَ وجدتَ مكاناً يكفيك. ما كنتَ ستستطيع أن تقفز، طبعاً، ولكن لا بأس...

ضحك حمزة وهو يتخيل الدُلفين يعيش في بيت، يضايقه في المشي، يرشقه بالماء، يسبح ماضياً تحت السرير. ما إن سمع الدُلفين الضحك حتى غطس، ثم ظهر على بعد مترين عن القارب، ورشق الفتى بالماء داعياً إيّاه إلى اللعب. استقام حمزة وشدّ صدره، وألقى بالجزمة من قدميه، وغنّى بصوتٍ عالٍ: «وانطلقَ الفرْسانُ بالجيادِ قبلَ الفجر»، وألقى بنفسه في الماء.

نادراً ما كان الفتى يرى مَزاوتش. وها قد التقيا هذا الصباح على الشاطئ، فتبادلا السلام، بل وابتسما، وكأنه لم يكن بينهما عداوة ولم يتعاركا من قبل. ظلَّ وجه تصوغبا قبيحاً، ولكنه نسيَ آثار الضربات. خطر لكاغْوَا الشاب أنه يطيب له أن يرى الندوب، والانتفاخات الزرقاء أو الأنفَ الأعوج. هناك توجد علامات انتصاره. فيما بعد أنّب حمزة نفسه على هذه الأفكار.

- اسمعْ، - خاطبته الجدّة تينا في المساء، - لاحظتُ أنك تتحدّث أحياناً مع أهرا أبيدج.

- نعم، يا جدّتي. إنه إنسان طيّب.

- هذا... طبعاً، أنت تقرر بنفسك.

وصمَتا.

- أريد فقط أن أحذِّرك. فأنت لا تعرفه كثيراً، لم يتسنَّ لك أن تفهمه على حقيقته. أو- و! إنك لا تتصوّر كم ذاقت منه زوجته! فقد كان مُتسكّعاً. لا يحترم والديه. يشحذ المال من الجميع، بل وكان أحياناً يسرق دراق الجيران ليبيعه. لا أعرف ما الذي جرى بينهما بعد ذلك. كانا يتبادلان الصراخ طويلاً. وكان ابنه بطل يخجل منه. ثم ماتت الأم، لم تتحمّل. وتوقّف عن التسكّع. ولكن ما الفائدة؟ لقد ظلَّ هذا العبء على كاهله. إنه ذو روح سوداء، وإنْ بات يميل إلى الذكاء في شيخوخته. أحياناً يقول كلاماً عاقلاً، وأحياناً يلقي الكلام على هواه. كن حذراً معه، يا بنيّ.

راح حمزة يراقب بصمتٍ كيف تتحرك الدجاجة تحت شجرة الأكيدنيا. كان يحب الجدّة، ولكنه يدرك أنه ما كان يليق بها أن تقول ما قالته.

مرت أيامٌ دافئة، ليس في نهارها مطر. كانت الغيوم تتبدَّد، وفي الليل تغدو السماء مثقلة النجوم البيضاء المنتشرة بطريقة احتفالية، وعلى قَدْر من الكثافة يجعل الناظر قادراً على أن يتبيَّن فيها ما شاء من أشكال جميلة وخيالات وصور. وكان القمر يذوب وهو يفقد جانبه الأيمن.

كان حمزة يكثر من تقديم الطعام لبِيْزو. ورأى فاليرا أن ابنه يقدّم للدلفين قرابة عشرٍ من سمك هاوزن الكبير، ولكنه قرر ألا يعارضه في ذلك. كان الفتى ينتظر، كما اعتاد، أن يفتح الدُلفين فمه ليضع له السمكة فيها على لسانه (طويل، زهري غامق، تغطيه خطوط تشبه الخطوط في كف الإنسان). وكان حمزة أحياناً يلقي السمكة جانباً أو يخفيها وراء ظهره متهرّباً من إلحاح الدُلفين بطلبها.

لم يكن الدُلفين يبتلع السمكة، بل كان يبدأ برميها جاهداً، ثم يلتقطها ويرميها من جديد. أحياناً كان حمزة يتمكن من التقاط السمكة وهو على القارب فلا تصل إلى الدُلفين الذي يطبق فمه على الفراغ.

بعد ذلك كان يستلقي في قاع القارب وهو يصيح ويختبئ من أنف الدُلفين المِلحاح. وحين يشبع الدُلفين من اللعب بالسمكة يلتقطها، فيمزِّقها وهي في الجو إلى ثلاث قطع، ثم يأكل جسمها متخلياً عن رأسها وذيلها للطيور. فقد كانت طيور النورس ترافق الصديقين، لا تعرف كيف بالضبط يحصل الدُلفين على السمكة من الصياد، ولكنّ بطنَها كان يذكرها أن بالإمكان أن تحصل على غذائها من هذه الشراكة. لم يكن عدد الطيور المجتمعة كثيراً. يتراوح بين أربعة وستة. ولم تكن تزعج الصديقين، فهي تتأرجح على الموج البعيد قليلاً، ثم تقترب وتنعَقُ ما إن ترى الطعام.

يوم الحادي والعشرين من سبتمبر صار حمزة بالغاً.

- اسمعْ، - قال له داود في الصباح. - لا تزعل. اسمَعْني فقط. سأقول لك شيئاً كأخٍ يحبّك.

نهض حمزة من الفراش ونظر إلى داود.

- أعرف أن الأمر صعب عليك. فأنت لا تريد أن تسافر. لقد عانيتُ هذا الشعور. حينها... كان زمن آخر. كان الأمر أسهل عليّ، ولكني أفهمك، صدّقْني. ولعل عيد ميلادك لا يُفرحك، ولكن

يجب عليك أن تكون رجلاً. فلتحتفل به كما يليق. ولتفرح لأنك ستصبح رجلاً في عيني أمك وأبيك. كن مرحاً، محبّاً للكلام. يجب أن تخلّف ذكرى طيّبة عنك...

- تتكلَّم عنّي وكأني لن أعود.

- لا تقلْ هذا، يا أخي. انسَ ما هو سيّئ، وكن سعيداً هذا اليوم. من أجلك ومن أجل والدَيك.

نهض حمزة واقفاً. فاقترب من داود، وانحنى يهمس له:

- سأفعل ما تقول، ولكن يجب عليك أن تعِدني بشيء آخر.

- ما هو؟

- أن تهتمَّ ببِيْزو. العبْ معه. لا ترفض صداقته... اطعْمه. افعل ما أفعله أنا. لعلّه لا يرحل. بل سيبقى...

هزّ داود رأسه محتاراً. تريَّث قليلاً وأجاب:

- حسناً. أعِدُك.

رجع الشقيقان كاغْوَا من صيد السمك أبكر ممّا اعتادا. إنهما لم ينشرا اليوم شبكتهما، بل سحباها عبر الخليج ثلاث مرات فيما تشتغل المحركات تشتغل، كما تفعل المراكب الطويلة.

كان الضيوف سيأتون مع حلول المساء.

سلقت الجدّة تينا الفاصولياء، وقَلَتِ السمك. كانت متوافرة في البيت الزبادي الحامضة (ماتيسوني) والحليب الحامض مع البرقوق والعسل (أهارتسفا)، وما هو مدخَّن من أجبان ولحوم، وعصيدة الذرة الصفراء، وملفوف كولباري، وكوتشماتش من أحشاء الدجاج. وقامت هيبلا بإعداد قرصٍ من الحلوى (كعكة عيد الميلاد) في الفرن، إذ كان طوران قد أحضر لها منذ شهر مايو من بسْخو ثلاث شموع ملوَّنة ومجدولة مثل منشفة معصورة. وسمح فاليرا فوراً بفتح خمس علب من الحليب المكثّف. واشتروا لحم خروف من عند حفيظة.

ركضوا في الجنينة وراء الدجاج، إذ كان مطلوباً للعيد ذبحُ ثماني دجاجات معلوفة. كان الديك ينظر مذعوراً كيف يقبضون على صديقاته، ثم راح يبحث عنهن بنظره بين أدغال الشجيرات مستغرباً انفراده المفاجئ. واختبأت الدجاجات الصاخبات الباقيات وراء مستودع الحطب، والحمّام، والمرحاض. وساعد باسيا بسرور في الاصطياد: فراح ينبح، ويقفز، ويلعب بعد ذلك بما يتطاير من ريش.

وصنعت الجدّة تينا بَقْلاوة.

ارتدى حمزة ثياب عيد الميلاد: حذاء، وبنطلوناً، وقميصاً بهيج اللون، وقفطاناً عليه ثلاث جيوب خيطت بخيط ملوّن، وحلقة يعلَّق بها غِمْد. وتعبيراً عن فرحته ببلوغ ابنه الثاني سنّ الرشد أهدى فاليرا قفطانه القوقازيّ القصير المزرَّر، وجزمة الصيد لحمزة. نساء عائلة كاغْوَا اللاتي يسترن شعرهن بمناديل مزركشة، سمحن لأنفسهن بارتداء فساتين طويلة حمراء قاتمة، تحتها قمصان بيضاء، أكمامُها طويلة تنسدل فوق الكفين. أما الزينة الوحيدة فكانت نوعاً من الأزرار الفضية أو البرونزية موروثة عن جدّة فاليرا.

ابتسم حمزة للتهاني والدعابات، ولكنه لم يكن بارعاً في الردود عليها. لم يعجبه أن الجميع قد تأنّقوا من أجله، وكان أهنأ له شخصياً لو أنه ارتدى جزمة رمادية أو شبشباً وجراباً عالياً سميكاً.

عند الساعة السابعة حضر الضيوف كلُّهم.

تحرّر حمزة من التوتر، فصار يضحك، ويروي النكات، وسمح بأن يعانقوه، ويقبّلوه، ويعِدوه بحياة رجال طويلة، وصحة جيِّدة.

- حذارِ فقط من أن تفكر بالزواج قبل الأربعين! - أوصاه طوران. - يجب أن تحقّق لنفسك مكانة قبل كل شيء. وعليك أن تتأمّل ماذا تفعل وإلى أين تسير في هذه الحياة. ولا تتعجَّل في اختيار عروس. فالفتاة ليست فَرَساً لتختارها الأسرعَ في الجري، أو لأن شعرها ينساب على كتفيها. عليك هنا أن تطيل التبصُّر والتفكير...

- مثلما كان جدّي يقول، - قالت الجدّة تينا، - أجمل البنات من لا تفتح فمها.

أطلق طوران ضحكة مجلجلة، ثم ربت على كتف الفتى وأضاف:

- ألم أحدّثك عن أنيتشبا، وكيف...

- نعم، يا خالي، لقد حدّثتني.

- إنه لا يقلّ عنك معرفة بهذه القصة، - ابتسم فاليرا.

- نعم! وليس وحدَه! فقبل أيام صادفتُ امرأة عجوزاً كانت قد سمعت منّي بمصيبة غْفاج، ولضعف عقلها أعادت على مسمعي القصة كلها وزادت عليها! إنك لن تصدق كم التفاصيل الجديدة التي عرفتها منها! فإلى أين كنتُ أنظر أيام العرس؟ يبدو أنني لم أرَ شيئاً! جميلٌ أن العجوز نوّرتني...

أدنى الرجل، وهو يقهقه، طنجرة لحم الغنم.

صبّ حمزة لنفسه كوب عصير بارد ودلقه في فمه، فتألم سقف حلْقه من شدة برودته. لكنه ابتلعه، مرتعشاً. مدّ الفتى يده إلى الدجاجة واقتطع فخذها، فصدم الكوب بمرفقه، وانسكب العصير وسال عن غطاء الطاولة يتلوّى كأنه أفعى على ركبتيه.

اختلطت الأحاديث بين خلافات الرأي، النصائح، الذكريات في ضجيج واحد. لم يُقلِق الجيرانَ ما حدث، فقد كانوا من بين المدعوّين.

فكّ فاليرا أزرار قميصه القوقازي الشبيه بقفطانٍ قصير ضيّق، وحكّ بكفّه رقبتَه تحت القَبّة.

أخذ حمزة يتمشّى بجسمه الضعيف لاهياً في الباحة وفي البيت، تارة يمسِّد باسيا ويضغط بقوة على خطمه، وتارة يتأمل نفسه في المرآة.

- الشباب قليلون. لا يوجد إلا المسنُّون. حتى إن ابنك لا يجد من يتسلّى معه، - تأسّف ساشا دجانتيم شاكياً.

خطر لحمزة أنه كان يمكن أن يُدعى مَزاوتش إلى هذا الاحتفال. «ليكُنْ أنه كان بيننا مشكلة، ولكنْ، لا يوجد الآن شيء. يومها ضربته كما يجب، ولكن لا بأس».

خرج الفتى إلى الشارع مشوَّشَ الأفكار، ناسياً لماذا يسير نحو البوابة. لاحظ زاوور ذلك فتبعه خُفية كي لا يراه.

سار حمزة على الطريق غير متعجّل، يدقّق النظر في الظلال الكثيفة، وفي السماء المنوّرة بالنجوم. «نعم. سنتان لن أفرح فيهما. سنتان». كانت البوابات مغلقة، وأبواب البيوت مقفلة. يخيِّم السكون. لا تسمع إلا صرير جندب. يترامى من بعيد، مثلَ صدى مخادعٍ، وصخب الحفل.

كاد حمزة يرتاب في صحَّة ما يفعله وهو يقترب من بيت عائلة تصوغبا، ولكنه رغم ذلك نادى بصوتٍ عالٍ:

- إيه! مَزاوتش! فيليكس!

السكون يلف المكان. صرخ مرة أخرى. ردَّ عليه كلب ركض نحو البوابة وانخرط في نباحٍ غاضب على الغريب، ثم وضع أماميّتيه على السياج، ولكنه لم يحاول القفز فوقه. ومن بعيدٍ ردّت على النباح كلابُ بطل أبيدج.

- ما هذا؟ - خرجت راييسا تصوغبا، أمُّ الشقيقين، ملتفَّة بشال، فصمت الكلب حين سمع صوتها.

- سامحيني، لم أشأ أن أوقظكم. ولكن اليوم عيد ميلادي. وأنا...- تكلّم الفتى على مهل لكي يبدو مهذباً.

- ماذا تريد يا حمزة؟ - سألت راييسا بخشونة، وبشيء من الخوف ألقت نظرة إلى زاوور الذي كان واقفاً خلفه.

- عفواً. كنت أريد... أن أدعو مَزاوتش. وإلا، فإنه...

- ليس موجوداً. لا هو ولا فيليكس. انصرفْ.

- سامحيني.

ابتعد حمزة مرتبكاً، ونبح الكلب خلفه. وفي هذه اللحظة وقع نظر كاغْوَا الصغير على زاوور، فعادا صامتين إلى الحفل. حيث لا يزال الجميع يتبادلون القصص والحكايات وقد فاتهما الكثير.

كانت الجدّة تينا تهتف قائلة:

- يا للبجعة! - أُو- و! لم يعد هذا النوع موجوداً. إنه أكثر البجع وداعة. بل وهو قائد أوركسترا! عنده جوقته، كان يسافر معها إلى موسكو، وإلى لينينغراد، - شرعت تعُدّ الجدّة وهي تطوي أصابعها وتهزّ رأسها، - وإلى سفيردلوفسك كان يسافر!

- هذا ما قالوه! - تابع طوران. يقول، لا أريدها، خذوها، لقد انتهى الأمر! لستُ بحاجة إليها. أنا، هذا... كيف قال... آ-ا! يقول، لن أجبر نفسي عليها! بهذه البلاغة عبّر عن نفسه! - ودقّ الرجل على الطاولة بقَبضته.

- يقرَعون رأسي بالكأس، يقتلعون عينَيّ، ولكني ما أزال أتحمّل! - صرخ تشكادوَا، قريبُ حفيظة، مخاطباً جاره. - ولكني في حالة جيدة تماماً. فإذا ما خمد قلبي، أصير صلباً ولا أعود أنظر إلى شيء!

- هذا يعني أنكِ أضفت قليلاً من صلصة الأدجيكا! يجب أن تزيدي الكمية!

- زار أبخازيّ مدينة موسكو، فاشترى ديكَ حبَشٍ واصطحبه معه لمشاهدة الساحة الحمراء. تقدّم منه شرطيّ وقال: «ممنوع، يا رفيق، أن تأتي إلى الساحة الحمراء ومعك طيور!». فأشار الأبخازي إلى طيور الحمام، وقال له: «وهذه، أليست طيوراً؟ لماذا مسموح لها؟». «أجل! فهذه طيور السلام!» أجاب الشرطي. فردّ عليه الأبخازي: «وهل ينوي ديكي أن يقاتلك، يا تُرى؟».

كان حمزة يسمع صخب الناس الذي لا ينقطع. وتذكر وعْده لداود، إلا أنه الآن كان حزيناً. يدفع الفنجان بضجرٍ على الطاولة، وينظر إلى الهلال النحيل والنجوم.

صدحت أصوات الأكورديون ومزمار الرعاة، وبدأ الرقص الليلي على الأنغام الرنانة والضحك.

كان الرجال يقفزون مردِّدين «آسـ - سـ - سا - ا!»، وينهضون عن مقاعدهم، يبسطون أيديهم، يقرفصون ويقومون مسرعين بأقدامهم على العشب المبلَّل بالندى، يدورون ويضربون بأيديهم على جوانبهم، ويوسّعون عيونهم.

وانخرطت النساء والفتيات القليلات اللاتي جئن إلى بيت كاغْوَا بالرقص مبتسمات، يبسطن أذرعتهن ويحركن أصابعهن، وهنّ يمشين بهدوء.

تعرّق بطل وساشا، فشرَعا يرقصان على أصابع القدمين[14]، حيث يضمّ الرجل يده اليسرى إلى صدره، ويبسط يمناه جانباً ويحرِّك ركبتيه وساقيه ببراعة وهو يدور حول مكان فارغ. وفي الظلام، بعد تناول الطعام الوفير، يمكن للناظر أن يتخيّل أن الأرض أمامهم مفروشة بأعدائهم المهزومين والأسرى الذين يرعبهم الرجال برقصهم. وراح الآخرون يدعمون الراقصين بإيقاع تصفيقهم القوي.

كانت النساء المسنّات يغنّين الموروث، وأقرانَهن من الرجال يرددون وراءهن.

تهبُّ على الرقبة ريح باردة، فيما الجسم ساخن، رطب. كان باسيا ينتظر ما يلقون به إليه وهو يروح ويجيء تحت الطاولة يلحس الأكفّ المسبلة الملطخة بالدسم. نارٌ في المطبخ. جمرٌ وشرر. تغدو الأرجل ثقيلة في الرقص. يمكن أن يسقط الرجل وهو يقرفص. ضحكٌ. أحاديث. رغبة بالاستلقاء. البطن منتفخة. الوجه أنهكته البسمات، وتزداد الآن دقات القلب. رطوبة في العينين، تستريحان حين تغمضان. لا بدّ من تكوير العينين من أجل رؤية أفضل. يفترّ ثغر بطل باسماً، ويصيح: ميستان نائم على الشرفة. يصدح الأكورديون ومزمار الرعاة. كلمات الأغاني ترن عالية في الأذن، يتعانَقون. ثمّة من يربت على الكتف.

نهض حمزة ليذهب إلى غرفته فسقط من فرط التعب النعاس. إيقاظه كان طويلاً وعسيراً.

بعد وقت قصير احتفل كلٌّ من زاوور وتشكادوَا ببلوغ سن الرشد. من جديد كان لا بدَّ من الاجتماع مجدداً، وكان حمزة مسروراً بذلك.

سلّم ساعي البريد طلبات التجنيد، وفيها أن دفعة الخريف بانتظار سحْب الفتى إلى الخدمة العسكرية. يوم الأول من أكتوبر ستأتي حافلة إلى لدْزا لنقل المطلوبين من هذه المنطقة للتجنيد، والذهاب بهم إلى مدينة سوخومي.

في اليوم الأخير من سبتمبر جاء حمزة لوداع بِيْزو.

لم يكن راغباً باللعب معه، ولا سيّما أن البحر كان بارداً. راح الفتى يداعب صديقه صامتاً. يبدو أن الدُلفين فهم أفكار الإنسان ولم يطالبه بالسباحة.

- سامحْني، فأنا اليوم لن أطيل البقاء معك. ما زال عليَّ بعدُ أن أودّع أقربائي... لا أكاد أصدق... أعرف أني لن أراك مدة سنتين... أو قد لا أراك أبداً، ولكني لا أستطيع أن أصدق ذلك.

أحسَّ حمزة بالضجر. كأن أحداً كان يسحب ببطء من صدره شريطَ الروح الأبيض. مع كل نفَس كانت عيناه تحتقنان بالدموع. تجمّد الفتى خوفاً من أن يبكي.

لم يسبق لبِيْزو أن كان من قبلُ بمثل هذا الهدوء.

- لا أعرف إن كنتَ تفهم ما يجري الآن. و... هل ستفهمه يوماً... إنك، طبعاً... فأنا... لا ترحل. انتظرْني حتى أعود.

نسيَ حمزة أن يجلب لصديقه ضيافته الأخيرة.

نهض الدُلفين من الماء كاشفاً عن تجعيدتين بين زعانفه ورأسه.

- إنك تسمن، - ابتسم صيّاد السمك الشاب برقّة.

رافق بِيْزو القارب حتى الشاطئ، وكما كان يحدث أحياناً، صعد إلى مكانٍ ضحلِ المياه.

ذهب الفتى إلى الطريق، فانتظر الدُلفين دقيقة، ثم انزلق عائداً إلى المياه العميقة وابتعد. كانت زعنفته تظهر تارة فوق الماء، وتارة تغطس إلى أن بات صغيراً لا تكاد تميّزه العين.

كان أهرا أبيدج جالساً على خشبة قصيرة. أومأ له حمزة برأسه، ولكنه تعجّل مسرعاً إلى البيت. لقد رأى كاغْوَا الصغير أن العجوز رفع يده داعياً إياه، لكنه تظاهر بأنه لم يلحظ ذلك. كان أهرا، على ما يبدو، يريد أن يودّعه.

توقف حمزة بالقرب من البوابة، ثم جلس على العشب ووضع رأسه على ركبتيه. لم يكن يريد أن يرى أحداً. «هل حقاً انتهى كل شيء؟ لقد بدأ الصيف للتو. أعرف أنه سيمرّ، وأنّ... ولكنْ ليس بهذه السرعة! كأنه لم يكن، نهائياً... أجل. و... يا إلهي! إنّي لن أرى بِيْزو بعد الآن، وقد كنت... جافّاً معه. لماذا لم أُحضِر له سمكة، لماذا لم أسبح معه؟ إنهم لن يأخذوني إلا في الغد، فأنا ما أزال هنا. لا أفهم... إنّي لم أتعلم حتى الآن كيف أعيش». تمنّى أن يصلح كل شيء في الحال، أن يعود إلى الشاطئ، أن يلقي بنفسه بين الأمواج وهو يضحك، أن يجلب السرور لبِيْزو، وأن يدنو من أهرا ويقول له شيئاً طيباً، جميلاً يجعل العجوز يضحك...

كان حمزة يعرف أنه لن يفعل ذلك.

«تظن أن الوقت يمرّ بطيئاً. ثم تنظر إلى الشهور التي مضت وتدرك أنك لم تكن محقاً. إلا أنك لا تشعر حقاً بسرعة مرور الوقت إلا في آخر يوم. ما إن يأتي الصبح حتى يحلّ المساء. ومع اللحظة التالية يأتي صباح جديد. لا بل وبسرعة أكبر...».

في النهار جمعت الجدّة تينا بذور الزان وحمَّصتها، فأزالت مرارة سُمّها ووضعتها في كيس صغير زوّادةً لحفيدها المسافر. فقد كان حمزة يحب هذه البذور، ربما لأنها تنضج في وقت قريب من عيد ميلاده.

لم يتمكن من النوم. كان جسمه ضعيفاً، أحس بالنعاس، ولكن النوم ظلّ بعيداً عنه.

نهض حمزة باكراً في الصباح. ما هي إلا لحظة حتى تبدَّدت الصور المتناقضة التي كانت تقلقه وتتلوّن في الليل كيفما اتُّفِق، فلم يبق منها ولو ذكرى ضعيفة. لكأنها أشباح مظلمة تجمّعت في حفر عميقة، ثم راحت تنسلّ عبر الشقوق، ما إن يشعل المسافر عود ثقاب، ويظهر الضوء. ونزل الفتى إلى باحة البيت، حيث الظلمة والرطوبة. فمشى عبر الدرب المفضّلة لديه إلى غرفة الحمّام وأصابعُه تلامس أزهار الميموزا، وهو يراقب صامتاً لا يبتسم كيف تكوّر أوراقها وتنحني له بعد أن يمرّ. خطر له أن يذهب إلى البحر، ولكن حمزة، لسبب ما، كان على ثقة أن ذهابه لن يفيد إلا أن يقوّي حزنه. «بل وحتى بِيْزو لا يأتي في هذا الوقت».

عانقت هيبلا ابنها، وطلبت إليه أن يكثر من كتابة الرسائل لها. وقيلت كلمات أخرى، لكن كاغْوَا الصغير لم يكن يسمعها. كان ميستان يتمسّح برجليه. أمّا باسيا فلم يظهر، بل ولم يتذكروه. وتراكضت بين الشجيرات المتشابكة دجاجتان أُخرجتا إلى الباحة وهما تتلقّتان صوب الديك. قبّلت الأم والجدّة حمزة، ولوّحتا له بيديهما وهما واقفتان عند البوابة. ومن جديد رجَتْه هيبلا أن يكثر من الرسائل.

ابتعد عن البيت، ولكن شيئاً لم يتغيّر بعد. سار الفتى في طريق يعرفها بمحاذاة أشجار مألوفة. لقد تخلّوا له عن الحقيبة الوحيدة لدى أسرته لكي يضع فيها أغراضه. وكان جيب بنطاله منتفخاً بسبب كيس بذور الزان.

كانت نقطة الانتظار بالقرب من مصنع السمك. هناك كان داود وفاليرا يودِّعان حمزة، وكانت حفيظة تودِّع زاوور.

كان القلب يدقّ بقوة ومرارة. والنظرة شاردة لا تُحسِن التركيز على شيء واحد. بكت حفيظة فأقلقت زاوور. ولم يتغيَّر أيُّ شيء. كانوا ما يزالون في لدْزا، واقفين معاً، ولا شيء آخر. لم يرغبوا بالكلام، مع أنه لم يكن في ذلك ما يضير.

طلب فاليري من جميع أصدقائه وأقربائه سلَفاً ألا يأتوا إلى هنا لكيلا يجرِّدوا الشابَّين من آخر ما لديهما من شجاعة.

كانت تفوح من الأرض رائحة أوراق شجر يابسة.

تأخرت الحافلة نصف ساعة. كانت وسِخة وعليها خطوط خضراء. استجوابٌ قصير لمن اسمُه مُدرَجٌ في القائمة. وصعد الشابّان الدرجات الضيقة وجلسا متجاورين، زاوور بالقرب من النافذة.

«إني مسافر».

رائحة غبار وبنزين. نظرة أخيرة إلى الأهل. شخَر محرِّك الحافلة. وعبر الزجاج الملطّخ بالغبار اهتزت البيوت والناس. وارتعشت الصدور المتوتِّرة. لم يكن الهواء كافياً للتنفّس.

«إني مسافر».

عمّقت هذه الفكر المتكررة مراراً إحساساً بالحنين، وبدت عديمة القاع، ويمكنها أن تبتلع حمزة.

كانوا ما يزالون في لذْزا. الشوارع المألوفة. صيادو السمك. الأشجار. والبحر من الجهة اليسرى.

تجاوزوا بيتسوندا. الطريق محاط بأشجار السروِ من الجانبين. الأشجار متجاورة، متساوية، مهيبة القامة. ثم امتدت أشجار الأرز على طول الطريق. أغصانها المتشابكة عالياً، مثل أيدٍ تتصافح، تمتدّ صفّاً طويلاً من جذوع متناسقة بنّيّة اللون وقببٍ خضراء.

نظر حمزة إلى يديه، وجال في باله أنه لم يودِّع بِيْزو وداعاً حقيقياً. كان ذلك يؤلمه. «يا لي من أحمق... ولكن الآن... الآن قد فات الوقت. بِيْزو... أين أنت الآن؟ ماذا تفعل؟ إنّي لم أرحل بعد، وأنا مشتاق إليك. يا سمكتي الرمادية، يا أخي».

وارتسمت بسمةٌ على شفتيه.

في شهر أكتوبر راحت السناجب تقترب بوجلٍ من ثمار الجوز. وكانت حفيظة تشكادوا قد منَحت كاغْوَا سلة صغيرة من ثمار الكيوي الحامضة. وكانت حبّات المندرين قد نضجت فأخذت هيبلا تنضّدها بحذر في صندوق خشبي. وكان العنب الروسي المنتشر على الأعمدة بالقرب من خمّ الدجاج قد بات صلباً أسود اللون وصار حلواً. وارتسمت على برتقال الجيران نُجيمات بيضاء كبيرة بقلوب مزخرفة.

عندما التحق حمزة بالجيش، أخذ فاليرا يفحص مسدّساته المخفيّة في مخابئها، فيتلمّس الطلقات، ويفرش الصور العسكرية على السرير ويدقق النظر فيها طويلاً.

لم يستطع فاليرا التخلي عن العمل في مراكب صيد السمك، ولا عن الصيد بمفرده. كان داود يذهب مع والده إلى الصيدِ في الصباح الباكر، فينشران الشِباك، ثم يعود فاليرا إلى البيت، ويبقى داود يراقب الصيد ويتسلّى بصنّارته، وأخيراً يجمع حصيلة الصيد وحده.

كان يضطر أحياناً إلى الإسراع في الصيد، فيقوم بجولتين أو ثلاث من نشر الشباك وسحبها.

في الصباح الذي أعقب سفَر حمزة اقترب بِيْزو من القوارب، كعادته. كان كثير الحركة، يخرج من أعماق الماء ويرتفع أعلى من حافة القارب بحثاً عن صديقه. لقد استغرب غيابه. لابد أنه ظن أن حمزة يلاعبه ويختبئ.

توجّه داود نحو الدُلفين بعد أن ابتعد عنه أبوه في البحر.

- مرحباً. الآن عليك أن تلعب معي. إنني طبعاً لست مثل حمزة. ولكني أستطيع أن أرعاك. وسأُلبّي طلب حمزة منّي أن أسلّيك. - ضحك الرجل وألقى سمكة بوري حمراء في الماء.

التقط بِيْزو السمكة وهي تغرق، فكرر طريقة تعامله معها، ورماها عالياً ثم تلقّاها، ثم وضعها في فمه وعاد نحو القارب، وأخيراً ابتلعها. وفرح داود لأن الدُلفين سمح له أن يلعب معه.

تراشق داود بالماء مع الدُلفين مودّعاً، وعاد إلى الشاطئ.

في اليوم الثاني اندفع الدُلفين إلى السمكة من جديد، فألقاها عالياً وتلقّاها ثم أسقطها، وراح يدور حول القارب ويخرج بالقرب من حافّته. بعد ذلك خرج للمرة الخامسة بالقرب من الإنسان، ثم انقلب عائداً على نحو فجائي، وأطلق رشقة ماء. ومضى يبتعد، وهو يقفز عالياً ومرّات كثيرة. فعاد نحو داود الذاهل، ثم ابتعد عنه، فغطس وعاد إلى الظهور في مكان آخر.

ظل بِيْزو يرافق القارب كما كان يفعل من قبل، إلا أنه غيّر سلوكه، فراح يعرقل التجديف، ويضع ظهره تحت المجاديف، ويلامس مؤخِّرة القارب، ويفسد عمل الشِّباك. وكان يرفض قبول السمك حين يلقي داود بسمكة بوري حمراء، أو بسمكة هاوزن كبيرة على أنفه. لم يكن الدُلفين يُلقي بالاً إلى ذلك، بل يسبح ضجِراً ثم يروح يضرب القارب بذيله. فيغضب داود، ولكنه يصبر. إلا أن صبره نفد أخيراً عندما جاء الدُلفين مسرعاً من بعيد، وقفز بالقرب منه فبلّله بالماء:

- ما هذا؟ ماذا تريد؟ آ؟ إنه ليس هنا! ليس موجوداً! ولن يأتي. سيغيب سنتين! لقد أخذوه! كيف أشرح لك ما معنى الجيش؟ هل تظن أني مسرور؟ أن يغيب أخي سنتين لا أراه! ما لك، آ؟!

ابتعد بِيْزو، ولم يعد إلى الظهور في الأيام التالية.

أرسل حمزة برقية قال فيها إنهم سيرسلونه من سوخومي إلى ياروسلافل لاجتياز دورة الأغرار العسكرية.

ذهبت عائلة كاغْوَا إلى العمل في الحقل. فقد جاء وقتُ قِطاف الفاصولياء. ثم الذرة الصفراء. كان العمل شاقاً. وراحت الجدّة تينا، المشغولة بالبذر، تنظر إلى فاليري المبلل بالعرق، فتذكرت حفيدها الذي استعاض قبل الأوان عن بلاده أبخازيا بحقول روسيا البعيدة.

عاد بِيْزو بعد غياب دام عشرة أيام، فضحك داود وداعب رأس الدُلفين قائلاً له:

- سامحْني، أنا الغبيّ. ولكنك تعرف أني أتعذّب أيضاً. أقسم لك أني لن أسيء التصرف معك بعد الآن.

سوف أطعمك وألعب معك. سيكون انتظار حمزة أسهل علينا إذا كنا معاً. وأنت لا تغِب طويلاً عني، وإلا أخفتَني. فماذا سأقول لأخي إذا غبت؟

حاول داود أن يطعم الدُلفين، ولكنه عاد لا يبدي اهتماماً بالسمك، إلا أنه بات الآن أهدأ في حركاته، يسمح بأن أداعب زعنفته طويلاً، ويقذف نوافير صغيرة من الماء.

كان الدُلفين يبتعد حين يرى الصياد متوجهاً نحو الشِّباك.

يوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر بلغ مَزاوتش تصوغبا الثامنة عشرة من عمره. وفي اليوم التالي رحلت به تلك الحافلة الوسخة ذات الخطوط الخضراء نفسها.

وصبغت الأوراق المتساقطة عن الشجر الطريق بلون أصفر مشوبٍ بالدم.

يوم العاشر من نوفمبر تلقّت عائلة كاغْوَا رسالة مختصرة من حمزة يعتذر فيها لأنه لا يستطيع بعدُ أن يكتب مزيداً من التفاصيل. وأخبرهم أنه سيطير في المساء إلى أفغانستان.

كان الجنود السوفييت يحاربون هناك منذ شهر ديسمبر من السنة الماضية.

# الفصل الرابع
# الشتاء



مدّ شهر ديسمبر طبقة دَبِقة من ثلج الليل على الأرض، ولكنها ذابت ما إن طلعت عليها الشمس. يخاف القرويون من الرطوبة والضجر أكثر مما يخافون من أي برد.

هدأت الحياة في لدْزا. وحده مصنع السمك كان رغم كل شيء يدعو العمال في الصباح وينشر في المنطقة روائحه الكريهة.

في النهار جلست الجدّة تينا بالقرب من النار في المطبخ، وأطلقت العنان للتفكير بأشياء بعيدة وفارغة. إنها الآن تنام في البيت، تتململ وتضجر في غرفة ضيقة خانقة.

لم تكن عائلة كاغْوَا قلقة على حياة حمزة وهي تودّعه، وكانوا يقولون إن السنوات تمرّ سريعاً. لقد كانوا على علْمٍ بالحرب في أفغانستان، ولكنهم لا يفكّرون بها. كان الابن الأكبر قد أدّى الخدمة العسكرية، ثم تذكروا أنه عاد سريعاً من الجيش سالماً.

لقد تغيَّر الآن كلُّ شيء. وبات حمزة تحت رحمة الرصاص في بلاد غريبة.

تذكّر فاليرا الحرب التي خاضها. وانهمكت هيبلا التي لا تهمّها أخبار المدينة، بخياطة الثياب صامتة. وكانت إذا ما تكلمت، تتكلم قليلاً وبصوت خفيض. أحياناً كانت تتردد عليها حفيظة. كانت الأمّان تجلسان حول الطاولة، تدقّقان النظر في القطْبات وتقطعان الخيوط. الضجر جعل الشتاء ثقيلاً. لم يكن هناك عزاء حتى في التفكير بالربيع المنتظر في أبريل.

كثيراً ما كان ميستان يختبئ في وكْره. ولم يعترض باسيا على ذلك وجلس مع القط.

في العام قبل الماضي جمّد الكلب أماميتيه في الثلج وطال مرضه بعد ذلك. وها هو باسيا الآن، في الأيام الشديدة البرودة، يتشمّم الأرض قبل الخروج، يتلمَّسها، مثلما تستعلم ربّـة البيت بلمسات قصيرة إن كان إبريق الشاي قد برد، قبل أن ترفعه لتغسله.

لم يكونوا يطلقون الدجاج من الخُمِّ الذي تنحصر حريتها فيه، ولكنهم الآن يقدمون لها مزيداً من الحبوب.

- هل تذكر كيف حاول الجورجيون في السبعينيات شقَّ طريق بالقرب من أتشاندارا؟ - سألت الجدّة تينا.

- أذكر، - أومأ فاليرا برأسه، وهو يعدِّل معطفه الفرو الذي تهدَّل.

- إيه... كم ضحكوا عليهم. أُو- و! ماذا أقول! حتى القرويون، وتشيتشبا قالوا لهم إنه لا يجوز أن تشقّوا طريقاً عبر ديدريبش، إنه مكان مقدّس! وليس فقط... فماذا كان جوابهم؟

- أذكر، أذكر، - كرّر فاليرا.

- نعم! لقد اكتفوا بنفض اليد استهانة بنا، كمن يقول: نحن ننفّذ ما نريد، وأنتم تتكلمون عن خرافاتكم. كانوا يتكلمون معنا كأننا همَج. وماذا حدث؟

- نعم، - أومأ فاليرا بهدوء.

واظب بِيْزو على استقبال قوارب كاغْوَا. وكان داود يخشى أن يغادر الدُلفين لدْزا مع قدوم أيام البرد القارس، لكنه لم يغادر. بل كان يحيّي صيادي السمك حين ينزلون إلى الماء، ويسبح قريباً منهم ويرافقهم حتى إلقاء الشِبّاك الأولى، ثم يذهب. كان اختلاطه مع الناس قصيراً، لا يزيد على نصف ساعة.

حالت برودة الماء بين داود والسباحة. ولم يكن التراشق بالماء لعبة مناسبة. فالرجل يخاف أن يبعث النشاط في بِيْزو، لذلك كان يكلمه بهدوء، من دون حماسة. فكانت تسليته الوحيدة معه إلقاء سمكة بوري حمراء له في الماء. كان الدُلفين يضعها على أنفه ويسبح بها، ثم يقذفها عالياً لتقع في الماء وتغطس فتموت.

يحدث أن يسبح بِيْزو بعيداً عنهم نحو ثلاثين متراً، ثم يقفز، ويضرب الماء بذيله، ويطلق من فتحة تنفُّسه نوافير ماء عالية، ولكنه لا يقترب من الناس.

لقد رأى العجوز أهرا أبيدَجْ كيف كان الدُلفين ذات فجر باكر يسبح مضطرباً بمحاذاة الشاطئ، فيُبقي زعنفة ظهره فوق الماء، ويختبئ تحت الأمواج، ويُظهر خطمه. كان ينتظر كاغْوَا.

- إنه مشتاق، هذا واضح، - همس أهرا. - ولكن لا بأس... ما دام صديقاً حقاً فإنه سينتظر. لا بدّ من لقاء! ولن أفوّت مشاهدة ذلك. ما أكثر ما سيكون هناك من تراشق بالماء! - ضحك العجوز ضحكة خافتة وأخذ يلفّ سيجارته.

يوم السادس والعشرين من ديسمبر بلغت هيبلا عامها الثالث والخمسين. وقد أرادت أن تحتفل بهذه المناسبة في بيتها بشكل محدود. فأغضبت كثيرين حين لم تدعُ إلا أقرباءها ومن صار بحكم المعرفة القديمة أخاً لها أو أختاً. لم يتوافد الأقرباء والأصدقاء على تلك السهرة لكي يرقصوا، بل لكي يبتسموا ويغنوا أغانيهم المتواضعة من دون موسيقى.

أفضلُ هدية تلقَّتها الأم كانت الرسالة الأولى من حمزة. لقد قرأتها الأسرة كلُّها، ودَعوا الجيران للاستماع أيضاً. كانت كل كلمة تُنطَق بصوت عالٍ، وعلى مهْل. فبعد أن وجّه التحية بجمل طويلة إلى والدَيه، والجدّة تينا وداود، ورجاهم ألا يقلقوا حول صحتّه كجنديّ، أخبرهم الفتى بالأسطر التالية:

«أعيش في مدينة بهرام الواقعة في إقليم بارفان. أنا واثق أنكم لم تسمعوا بهذه الأسماء. هنا، قريباً سأعرف ما هي الحرب، وعندها سأكتب لكم عنها، وإن كان من الغباء الحديث عنها لوالدي، لأن كل ما سيبدو لي عجيباً أو مخيفاً سيكون شيئاً مفهوماً بالنسبة له.

أريد أن أحدِّثكم عن الحقول القريبة من مدينة ياروسْلافْل. فأنا لم أكن أصدِّقك، يا داود، أن هناك أراضي أخرى، غير أبْسْنا، منبسطة مثل البحر. لقد تأكدتُ الآن من صحة ذلك. وهنا يكمن سرّ الرعب! تنظر لتبحث عن جبل، فلا ترى حولك إلا غابةً، وبيوتاً. هناك يعيش الناس ضجرين. في كل يوم يزداد الشوقُ إلى الجبال. جيدٌ أن حياتي كانت في أبخازيا. أكتب هذه الكلمات وأبتسم. لكنك لا تُمنَح البسمة كثيراً هنا. من حُسن الحظ أنه يوجد أبخازيون هنا. ففي ثُكْنتنا وحدها يوجد خمسة منهم، بينهم زاوور ومَزاوتش. ونحن نتعاون فيما بيننا.

أعرف، يا داود، أنك تفعل كل ما وعدتني به، وإني لا أسألك عن ذلك. لا أسألك إلا كيف يعيش صديقي بِيْزو».

بعد ذلك وصف حمزة، باختصار، ومن غير ما ترابط واضح، حياته اليومية وتدريباته العسكرية. وعبّر عن سروره بأنه، مقارنة مع الآخرين، يمتاز بالسرعة والقوة. وعزا ذلك إلى أصله الجبلي.

ووردت في الرسالة هذه الملاحظة:

«أريد أن أوجّه آخر كلماتي إلى بِيْزو. أرجوك، يا داود، اقرأْها له». ونسيَ الفتى أن يوقّع الرسالة ويدوّن تاريخها.

- لماذا؟ - استغربت هيبلا حين رأت داود في الصباح وهو يضع الرسالة في عبّه.

- كيف؟! لقد رجاني حمزة أن أقرأ الرسالة للدلفين.

- شيء غريب! انسَ ذلك.

- أمّي! لا أستطيع! يجب عليّ أن ألبّي طلب أخي. لا تجبريني على عصيانك.

- مهما يكن، فالسمك لن يفهم! دع الرسالة.

- حتى وإن كان لا يفهم، لكن هذا طلب حمزة!

- طيّب، - قالت الجدّة تينا وهي خارجة إلى الشرفة. - دعيه يفعل ما يشاء. معه حق. اذهبْ!

- حذارِ أن يرش هذا الدُلفين الورقة بالماء! - همست هيبلا، وأضافت حين خرج من البوابة: - فقد يظن الرسالة طعاماً، فيخطفها ويأكلها. من يعرف هذه الحيتان...

- حقاً لقد كبرتِ في السن! انظري كيف بدأتِ تغمغمين! - ابتسمت الجدّة تينا.

تابعت هيبلا، من غير داعٍ، تفحُّصَ فردة الجراب الذي شبكته. ونظرت إلى حَماتها، ثم قطّبت وجهها وزمَّت شفتيها وانفجرت فجأة بضحك قويٍّ وعريض، فضحكت بعدها الجدّة تينا أيضاً.

- ماذا تفعلان هنا؟ - خرج فاليرا من غرفته، ونظر إلى المرأتين وهما تقهقهان، فهزّ كتفيه متعجِّباً وعاد إلى سريره.

سحب داود قاربه إلى الماء. لم يكن يعرف إن كان الدُلفين سيأتي الآن أم لا.

ورغم شكوكه ابتعد الرجل عن حصى الشاطئ، وتعثَّرت خطوته فدخل الماءُ حذاءه وبلّل جوربه. هزّ داود رأسه وتَسْتَس بحزن ورفع مجدافه.

لم يظهر الدُلفين.

راح داود يجوب الخليج بقاربه على مهل. وضرب بمجدافه عشر مرات، ثم تجمَّد وشرع يدقق النظر بالبحر، هل سيأتي ذو الزعنفة السوداء أم لا.

نعتَ الرجل نفسه بالغباء، وخطر له أن يرجع إلى البيت. إلا أنه كان يعرف أن عليه أن ينتظر هنا ولو ساعة واحدة، وإلا فإن ضميره سيحرمه النوم.

ظهر الدُلفين وراء انكسار الأمواج الجنوبية المزبدة. كان يسبح مسرعاً. فلم يلبث أن أبرز أنفه الطويل بالقرب من حافة القارب. كانت عيناه السوداوان المكوّرتان قليلاً تنظران إلى الإنسان. وتقلّب بِيْزو على الأمواج، تارة يقلّص لَهاته وتارة يرخيها.

- لقد انتظرتكَ طويلاً، - ابتسم داود، وشعر بالأسف لأنه لم يُحضِر معه سمكة هذه المرة. - هذه رسالة من حمزة، وفيها يكتب شيئاً لك أيضاً. وقد طلب مني أن أقرأه عليك، فلتسمعْ. ولا تهرب إلى أي مكان. فقد تلاسنْت مع أمي بسببك. ها هو...

فكّ داود أزرار معطفه المصنوع من جلد الغنم وقميصه، فأحسّ بلسعة برد على صدره. ووضع غلاف الرسالة تحت الغطاء المشمع وفتح الورقة وبدأ يقرأ:

«مرحبا، أخي بِيْزو. إنّي أشعر بالضجر في غيابك هذه الأيام، ولاسيَّما في الأماسي، عندما أكون تعِباً وأستلقي لأنام. إنك لا تعرف شيئاً عن البلاد التي أعيش فيها، لأنه ليس فيها بحار ولا شواطئ تستطيع أن تأتي إليها سباحة. وبالمقابل فأنا على يقين من أنه ما من أحد هنا (باستثناء دينيس) يعرف شيئاً تقريباً عن الدلافين. حتى إنّي لم أحاول أن أشرح لهم أني عقدت صداقة مع حيوان غريب، لا يقلّ في سلوكه وأفكاره عن أفضل الناس، وأنه يعيش في الماء، وأنا أسبح معه. وإلا اتّهموني بالجنون. إنك لا تسمع الضحك في كلامي إليك، ولكن صدّقني إنّي الآن أضحك.

إني أغمض عينَيّ وأرفع يدِي وأتخيّل كيف كنت أتعلّق بزعنفتك وأمضي مسرعاً معك في الماء. أعرف أني لو كنت عندكم الآن ما كنت سأسبح معك في البحر، خوفاً من البرد. ولكني أتألّم لأني

لا أسمع انكسار الأمواج. ما أسعد من يلتفت فيرى البحر وفيه دلفين يسبح. وهذه السعادة ليس ممّا يمكن شراؤه أو الفوز به، إنها حقيقية ولا تُتعِب حتى في استمرارها وتكرارها منذ الطفولة وحتى الشيخوخة. لا يجوز استغلالها ولا التبجّح بها. يكفي أن تنظر مرة وترى الموج ودلفيناً يسبح نحوك. أن يجعلك ذلك المنظر تبتسمُ وتفهم في الحال أنك سعيد حقاً. إنّي أفتقدك، يا بِيْزو...

لو كنتَ هنا لَما أعجبك المكان. فالسمك قليل، والسمكة التي في أطباقنا كثيراً ما تفوح منها رائحة صيد قديم طال بقاؤه تحت الشمس. يقول دينيس، أحدُ رفاقي، إن الدلافين تُحسِن القتال أيضاً. وأنا لا أصدّقه، ولكني أعتقد بأنك ستستمتع بالاستماع إليه. فهو يؤكد أنه رأى بأمِّ عينه في أثناء التدريبات كيف يُلقون الدلافين بالمظلات من الطائرة، وهي مزوّدة بلغم أو قنبلة لتفجير السفن... وقد تخيّلتك وأنت تلبس خوذة وعليك رُتَبٌ وتستعدّ للقفز!

إني لا أتحدث عنك إلا مع أصدقائي. مع زاوور الذي رأيتَه، ومع مَزاوتش. لكن مَزاوتش هنا شخص آخر. لا أعرف ما الذي غيّره. لعلّه عراكنا الذي حدثتك عنه. إنّي أتكلم مع الأبخازيين الآخرين عن أشياء كثيرة، ولكن ليس عنك. لا أريد. حتى مع دينيس، مع أنه شابٌّ ليس سيئاً. زاوور يسخر مني مازحاً، ويضحك لأن الشباب الروس يكتبون لخطيباتهم، أما أنا فأكتب لدلفين...

بِيْزو! إنّي على يقين من أن أيامنا ستعود. سنتراشق بالماء من جديد، ونسبح معاً، ونتَشَيّطَن. ومرة أخرى سأعود أطعمك، وأداعبك. ما عليك إلا انتظار عودتي، فلا ترحل مهما أغواك البحر البعيد. فأنا محتاج إليك. إنّي ألوم نفسي على أني لم أكن أُكثِر من اللقاء بك، وأني كنت أحياناً أفضّل البقاء مستلقياً تحت جمّيزة البيت، أو الثرثرة الفارغة مع الآخرين، بينما كنت قادراً على اللهوِ معك. ولكن، قد أكون مخطئاً. فقد كان كلُّ شيء على ما يرام... سامحْني، فإن أفكاري تصبح مشوّشة. ما إن أمتنع عن البوح بواحدة منها حتى أجد نفسي مجبَراً على الإفصاح عن أفكار كثيرة أخرى، ولذلك فإن الأفضل هو أن أنهي حديثي.

أحلم بأني دلفين. أسبح قريباً من القاع، وأدقق النظر بالأحجار هناك. أراقب الأسماك وهي تسرع مبتعدة. والماءُ يشعّ كالذهب تحت الشمس، تتأرجح فيه قَبضات قناديل البحر صغيرةً على مهل. وأنت تسبح قريباً مني، ونحن كلانا ننعم بالحرية. إنه حلم جميل. والمشاعر فيه على قَدْرٍ من الوضوح يجعلني أتذكرها حتى المساء.

أذكر أني اختلفت في النقاش مع أصدقائي ونحن نحاول أن نحدِّد إن كنتَ سمكة أم لا، فأكّدتُ أنك لستَ سمكة. لأن السمكة غبيّة مهما كان. أمّا أنت ففيك حتماً من العقل ما لا يقلّ عمّا فيّ أو في داود. لا تزعل، يا داود، وأفضل ما تفعله الآن هو أن تودّع بِيْزو عني وتداعب أنفه.

انتظرْ رسالتي القادمة، يا بِيْزو».

- ما رأيك؟ - ختم داود. - ما لك تنظر إلـيّ؟ أنت ترى أنه لا ينساك. لك أن تفرح. إن ما كتبه حتى لأمّه أقلُّ ممّا كتبه لكَ. وما هذا، لو تعلم، إلا غباء. ولكن...

لوّح الدُلفين بأنفه، وأطلق رشقة ماء، ثم فتح فمه وعبَّر عن رأيه بصفير قصير. نادراً ما سمع داود صوت الدُلفين، لذلك ضحك بقوة ثم قال:

- أعتقد رغم كل شيء أنك سمكة. لعلّك لم تفهم شيئاً. لكن يكفي. سأعود إلى البيت. إذا جاءت رسائل سوف أقرأها عليك. لكن لا تُلِحّ علـيّ الآن كلَّ يوم بالسؤال عمّا إذا كان قد كتب أم لا، حسناً؟ إذا كتب، سأخبرك! وإلا فإننا سنبدأ...

ما إن رفع الرجل مجدافيه حتى ابتعد الدُلفين، وراح يثب ويتقوَّس بطريقة عجيبة، ثم يغوص في النقطة نفسها التي وثب منها. وبعد ذلك هدأ ورافق القارب حتى الشاطئ.

عند المساء هطل الثلج رطباً، لا يظهر بياضه إلا وهو في الجو، ثم يأخذ بالذوبان في الوسخ. وقذفت به الريح إلى الشرفة والمطبخ. لم يخرج أحد من عائلة كاغْوَا من بيته. لقد أحسّوا بالبرد فارتدى كل منهم كنزة وألقى لحافاً على كتفيه. لم تكن هناك رغبة بالعمل، فراح فاليرا يعاود قراءة أشعار غوليا، ويرفع صوته وهو يقرأ بعضاً منها محاولاً أن يجذب انتباه هيبلا.

- اسمعي:

*تطلع الشمسُ علينا منذُ مليونِ سنة،*

*ترسـلُ الدِّفـءَ إلينا والضياءْ.*

*ثم تمضي وتغيبْ.*

*غيرَ أنَّ الدفـءَ في القلب مُقيمْ*

*كلّ ليلٍ ونـهارْ.*

*فهو خـيـرٌ منكِ، يا شمسَ السماءْ،*

*لا يبالـي بغيـومٍ في الفضاءْ.*

- أجل... هذا الشعر عن الشمس والدفء جاء في وقته، - ابتسمت المرأة.

هطل الثلج في الليل أيضاً، فصمدَ على الأرض. عبثاً تحاول الشمس منذ الصباح أن تذيب هذه الأغطية البيضاء، فقد أضعف الشتاءُ بصرها. وظل الثلج متماسكاً، يمتد طبقة بيضاء مستوية. كان فرحةً للأطفال، يصنعون منه كُرات يتقاذفونها. وكان أهل القُرى يُكثِرون من استنشاقه بقوّة ومَحبّة. فقد كان لهم تسليةً نادرة أن يروا كيف يخرج الهواء من أفواههم على شكل غيمات صغيرة.

- شيء جميل! - دسّ فاليرا يديه في كَوم صغير من الثلج وضحك. -إني، طبعاً، أحب الجوَّ الحارّ... ولكنّ الصقيع الحقيقي مع ثلج ورياح قوية أفضلُ من هذه الرطوبة!

خلال يومين انخفضت الحرارة حتى الصفر، ثم ارتفعت وبلغت أربع درجات. وبعد برْدٍ قصير استقرت على عشر درجات، وظلت على هذه الحال حتى شهر فبراير لا يطرأ عليها تغيير. يعود الراعي المتعَب مساء إلى كوخه فيستلقي على جلد خروف مفروش فوق القش، ويتقلّب كثيراً ريثما يجد وضعيةً أفضل ليديه ورأسه. ويتذمّر لأن كل حركة تبدو له عديمةَ الجدوى، فيعدِّل وضع فراشه المنكوش، وأخيراً يجد وضعية مريحة حقاً، ولكن لا يتسنّى له أنه يفرح حتى يكون النوم قد أخذه. هكذا فعلت الطبيعة أيضاً، إذ بعد شكوك وعويل، قررت أخيراً أنّ عشْر درجات خلال البَيات الشتوي ستكون مريحة لها، فاطمأنّت. كان الثلج يذوب ويسيل عبر مَجارٍ رقيقة، ولم يعُد إلى الهطول في لذْزا بعد ذلك.

- إذا كنت عاشقاً مولعاً بالشتاء الحقيقي إلى هذا الحد، فلتسافر إلى بسخو. هناك يتراكم الثلج ليبلغ ارتفاعُه بحلول ديسمبر سبعة أمتار، - قالت هيبلا ضاحكة. - هناك سيفرحون بك. وإلا فإنهم يشكون من الضجر.

قطّب فاليرا ولاذ بالصمت.

في المساء اجتمعت العائلة وشاركت كلّها بكتابة جواب آخر لحمزة.

- يعطيك العافية! - ألقى داود السلام على أهرا أبيدَجْ.

كان العجوز جالساً على مقعد، ويبدو أكبر عمراً في ثوبه الشركسي والشمْلة الجوخ.

- يعطيك العافية. ماذا، ما هي... قصدي ما أخبار أخيك؟

- وصلتنا منه رسالة قبل بضعة أيام. كل شيء تمام. إنه لم يشارك في الحرب بعد، ولكنه جرَّب إطلاق النار.

وصمَت داود قليلاً، ثم كذب عليه:

- إنه يبلِّغك السلام.

- صحيح؟ - تعجّب أهرا وفرح.

- نعم، طلب أن نقول لك إنه يتذكر أحاديثك...

- أجل...

وصمَتا.

- عندما تكتب له الجواب بلّغه تحياتي. قل له إني، وإن كنت في الثمانين، سأنتظر عودته. لا يجوز أن أموت قبل أن أستمع إلى أحاديثه عن الحرب. لم يسبِق لأحدٍ منّا أن حارب في تلك البلاد...

استقبلوا عيد رأس السنة بهدوء، ومن دون احتفال.

حتى إنهم لم يصنعوا الحلوى (كعكة عيد رأس السنة). ولم يوزِّعوا هدايا في الصباح.

يوم الثاني عشر من يناير لاحظ داود على الطريق رجلاً رَبْعَ القامةِ، يرتدي سترة عسكرية وقبّعة. لم يكن هذا الشخص سوى زوراب أوتاروفِتش غيورغاذْزِه، رئيس شعبة التجنيد في المنطقة. كان واقفاً بالقرب من بوابة عائلة كاغْوَا، يتلفّت مضطرباً كمن نسيَ إلى أين هو ذاهب. نادراً ما كان زوراب أوتاروفِتش يأتي إلى هذا الجزء من لدْزا. تجمَّد داود في مكانه عابس الوجه. كانت دقّاتُ قلبه عالية وواضحة.

- ماذا يريد؟ - همس بغضب.

عدّل زوراب أوتاروفِتش طرفَي سترته العسكرية وصوّب نظره واثقة إلى داود. وحين التقط نظرته أومأ له كمن جاء إلى هنا وَفقاً لاتفاق قديم وها هو الآن يطلب أن يخرج لاستقباله. لم يتحرّك داود. ترامى من البيت المجاور صوتُ ضحكٍ. وفاحت رائحة صقيعٍ وأوراقِ شجر.

نهض داود على مضَض وذهب إلى البوابة، فتابعه باسيا بنظراته، ثم تثاءب وبدّل موضع أماميتيه وعاد إلى النوم.

وقف زوراب أوتاروفِتش غيورغادزه في مكانه، واكتفى بالتلفّت حواليه حذِراً كأنه خائف من أن يرى أحد كيف يأتي هذا الجورجي ويتكلم عن شيء ما مع أبخازي. لم يسبِق أبداً لداود شخصياً أن تبادل حديثاً معه. لقد فهم أنه جاء إلى هنا لغاية ما.

حرك رئيس شعبة التجنيد قبّعته ثم أعادها حالاً إلى مكانها، وألقى نظرة رمادية فارغة على داود الذي كان يمشي ببطء كبير، ثم أصابه الذعر من أن ترى أمّه أو جدّته زوراب أوتاروفتش فتخرجان هما إليه. فأسرع داود خُطاه وهو لا يعترف لنفسه بسبب هذا الخوف. كان الآن يلحّ عليه التفكير بذراع الرفش المشقوقة وبأنه سيكون عليه أن يغيّرها. وخطر له أنه لليوم الثاني يشكو من ألمٍ في أصبع رجله. لعله أصيب من غير أن ينتبه إلى ذلك. كانت أفكاره تحاول أن تنزلق وتقبض على شيء يلوِّح له على مقربة منه، ولكنه يمنعه من ذلك. وعاوده التفكير مرات بذراع الرفش، وأصبع قدمه، وبالشِّباك، وبقبعة رئيس شعبة التجنيد...

- خذ، - مدَّ زوراب أوتاروفتش له يده بورقةٍ مطويّة.

- ما هذه؟

- هذه ليست لك.

هزّ داود رأسه مستفهماً.

- أوصلْها بنفسك. - قال رئيس الشعبة بصوتٍ جافٍ مملّ. - الأفضل أن توصلها أنت. لا حاجة لإيصالها رسمياً بيَدي. أخبرْها أنت. هكذا سيكون أهونَ عليها. وأنت ستجد الكلمات المناسبة.

نظر داود إلى الورقة، ولم يلحظ كيف أخذها بيديه. فتح فمه قليلاً فأحسّ بأنفاسه شائكة ساخنة، ولسببٍ ما صار لعابه دَبِقاً.

- يجب ألا أتصرّف هكذا، ولكن هذا أفضل. - تجهَّم رئيس الشعبة وتجمّعت على جبينه تجاعيد ثقيلة وبارزة كأنها تجاعيد على حذاء من جلد. بدا وكأنه مجبَر على الكلام وفي رأسه وجعٌ عميق.
- أنا نفسي عندي...، نعم. نحن الآن جميعنا وراء خطٍّ واحد.

قال زوراب أوتاروفتش كلاماً آخر أيضاً، ولكن ّداود لم يكن يسمعه. كان يتلمَّس الورقة بين يديه فقط.

يجب أن يقرأها. أم يسلمها لأبيه ليقرأها...

حين رفع داود نظره كان رئيس الشعبة قد صار بعيداً عنه.

فتح الورقة وأرغم نفسه على أن يبدأ بقراءة ما هو مطبوع على الجهة اليسرى من أرقام تشير إلى القطعة العسكرية، والبريد الميداني، وتاريخ الإشعار ورقمه.

ولم يسمح لنفسه بأن يميل ببصره إلى النص الموجود في منتصف الصفحة، ولكنه رغم ذلك، وبدافعِ إغراءٍ قصير، أبصرَ بضع كلمات.

«يرجى تبليغ... أن تشكادوَا زاوور... مهمّة قتالية... توفّي يوم 3 يناير».

ارتجفت يدا داود، وشعر ببرودةِ الاسترخاء، فامتدّ التوتر هابطاً إلى الأسفل، عبر الرقبة والصدر إلى رجليه.

- هذه ليست لنا...

كان استرخاؤه قصيراً، قصيراً جداً. فقد ازداد ارتجاف يديه قوّة، وكانت القراءة صعبة عليه، كأن الورقة قريبة جداً من عينيه. فاضطر أن يمدّ يده بالورقة قليلاً ليبعدها عن نظره. ألقى داود نظرة إلى الشرفة، ثم قرأ أخيراً نَصّ التبليغ كاملاً، بأناةٍ وبهمسٍ مسموع:

«يرجى تبليغ المواطنة تشكادوَا حفيظة بيسلانوفا المقيمة على العنوان... أن ابنها تشكادوا زاوور غيبورغيبِفِتش المخلص للقَسَمِ العسكريّ قد أبدى بطولة وشجاعة وهو ينفّذ مهمّة قتالية، فأصيب بجروح بليغة يوم 1 يناير ١٩٨١ ومات متأثِّراً بجراحه يوم 3 يناير 1981».

مات... المخلص للقَسَمِ العسكريّ...

لم يعرف داود ماذا عليه أن يفعل. ومن دون جدوى أعاد قراءة التبليغ مرة إثر مرة، وكأنه يأمل أن يجد فيه معنى آخر. إنها مجرّد كلمات. ليس في وسع زاوور أن يموت. هذا... زاوور حيّ، لأنه... وضمَّ داود الورقة إلى صدره وتذكر الفتى الخجول تشكادوَا. هذا كذبٌ... وتوتَّر ظهره بوخزة قصيرة. أحس بثقلٍ في يديه، وتوقف الارتجاف. مات زاوور. قتلوه. قتلوه في الحرب.

هنا، في أبخازيا الهادئة، المستسلمة لضجرها الشتوي، بدا ذلك شيئاً مستحيلاً، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد مات حقاً...

صار انتباه داود انتقائياً، فلم يحتفظ في ذاكرته من كلّ ما حدث بعد ذلك إلا بأحاديثَ وصورٍ متفرّقة.

قرأ فاليرا التبليغ. كان واقفاً. نظر محتاراً إلى ابنه، ثم أعاد القراءة من جديد. ظلّ صامتاً. ترامى صراخٌ عن الشاطئ. راح ميستان يلحس يده. كان داود يُكثِر من بلع لُعابه، وكانت عيناه تتألّمان بفعل الحرارة الصاعدة إليهما.

- ما العمل؟ - سأل فاليرا.

- لا أعرف...

- هل يُعقل... يا حسرتي على الصبيّ...

- عمَّ تتكلم؟ - سألته هيبلا وقد سمعت كلماته الأخيرة.

ناولها زوجها الورقة.

- يا إلهي! - صاحت المرأة، وأسرعت تمسح يدها اليسرى بطرف تنورتها. - ما لكم واقفون هنا؟ كيف يمكنكم هذا! يا إلهي!

ركضت هيبلا نحو البوابة.

كانت هذه وفاةَ أوَّل عسكري من لدْزا منذ سنوات طويلة. بعد أسبوعين جاؤوا بنعش الفتى زاوور من سوخومي إلى القرية. تحت ألواح الخشب كان صندوق من الزنك. يقال إنه لم يكن في داخله حتى رُفات جُثمان. لم يكن هناك إلا بدلةُ القتيل العسكرية وقبّعته الفرو. وقد أدّت هذه الأقاويل والشكوك إلى زيادة شعور الأقرباء بالفاجعة، لأن هناك من يستطيع التشكيك في أن ابنهم مدفون في مسقط رأسه، وهذا يعَدّ إهانة للعائلة بأسْرها.

وضعوا النعش في دار تشكادوَا، واجتمع الناس حوله يبكون. جاء الأصدقاء، ونساء غريبات، وكبيرات في السن. كثيرون جاؤوا من القرى المجاورة. لم تكْفِ المقاعد الجميع، فجلس الناس حيثما اتُّفِق: على الصناديق، والأدراج، والبراميل، وعلى الأرض.

طالبت شعبة التجنيد بأن يدفنوا زاوور بأقصى سرعة. لم يفهم أحدٌ في لدْزا هذا الاستعجال. وبالكاد تمكنت عائلة تشكادوا من تأجيل الدفن ليلةً واحدة بعد إقناع شعبة التجنيد بالانتظار حتى الصباح.

كان البكاء مريعاً. ما إن يسمع المارّة العويل والأنين حتى يتوقفوا متجمهرين وكأن وقوفهم هناك سوف يُسكت الأصوات القادمة من البيت.

- يا لَلهول، - همسَ بطل. - مهما قلنا، فإن هذا شيء رهيب... كالوحوش تماماً.

- نعم، - وافقتْه أيناتش.

- هكذا تعوي الجقلان أيضاً. ولكن هيهات لها أن تَبكي أحداً. إنها على الأرجح تضحك. عجيب طبعاً مدى التشابه في حياتنا بين البكاء والضحك!

تقترب النساء من النعش، ينحنينَ عليه ويصرخن تخنقهنَّ عبَراتٌ كثيفة. يفقِدن الإحساس فيخدشنَ وجوههنّ بجروح طويلة دامية، وينتفن شعر رؤوسهن، يركعنَ على ركبهنّ ويجأرنَ مثل ذئباتٍ تحيط بفراخها المقتولة. بعضهن شرَعنَ بالسُّباب وصبِّ اللعنات على القَتَلة. كنّ يمشين في البيت يتخبطن بشكل عشوائي، يتصادمن، يتعثّرن بالكراسي كأنّ بهنّ مس من الجنون.

هربت القطّتان والكلب من بيت تشكادوا، ولم يبقَ لا مبالياً بما يحدث إلا الدجاجات، فكانت تركض وتلتفت برؤوسها لتتبين إن كان أحد من الحاضرين قد أسقط كسرة من الخبز.

كان ميزان الحرارة يشير بثباتٍ إلى عشْر درجات. والسماء خالية من الغيوم. ترامتْ أصداء رعد قصيرة تهبط عن الجبال، إلا أن القرويين كانوا يعرفون أنهم لن يُلقوا بالاً إلى أيّ صواعق وعواصف أو مطر.

كان داود يراقب الندْب وهو جالس بمحاذاة الطاولة وقد بلغ به التوتر درجة أصابت رأسه بالألم. فاختبأ في الظل خوفاً من أن تراه إحدى العجائز الباكيات. لقد شعر في هذا البكاء الهستيري

بالموت. فكل من يعرفهم كانوا هنا أناساً آخرين. كان مستحيلاً أن تنظر إلى هيبلا، فهي لم تكن تبكي زاوور وحدَه، بل وكانت تبكي ابنها أيضاً.

كانت النساء اللاتي جفَّت دموعهن يتابعن البكاء أنيناً وأصواتاً مبحوحةً خشِنة.

في الليل كانت حفيظة وأخوتُها الثلاثة، وأمّها، وأولاد أخوتها جالسين في الغرفة قريباً من النعش. لم يكن مسموحاً لهم بالنوم، إلا أنه كان للتعب أثرُه طبعاً، وكثيراً ما كان أحد الجالسين يكبو ويخفض رأسه. وحين استيقظت حفيظة من حزنها الثقيل رأت أن الجميع نائمون إلا هي. فاقتربت من النعش، وهي تئنّ فاتحةً فمها، فوضعت يديها عليه. كانت بها رغبة بإلقاء نظرة على ابنها مهما كان منظره الآن. فنزلت إلى المستودع وأخذت من هناك مِخَلَّ الحديد، وعادت على رؤوس أصابعها إلى البيت. فخلعت بحذر وعنادٍ عدّةَ ألواح من خشب التابوت، ولكن لم يكفِها الوقت لفتح صندوق الزنك. استيقظ أخوها وجرى راكضاً نحوها وهي تبكي، فارتخت بين يديه بعد أن أسقطت المِخلّ وثنت ركبتيها وتعلّقت بذراعيه، وكان لا بدّ من نقلها إلى السرير. في صباح اليوم التالي أنزلوا التابوت في مقبرة العائلة وراء بيت تشكادوَا. والقى أهرا أبيدَجْ حفنة تراب في القبر، ثم صمت قليلاً وألقى كلمة وداعية.

أنصت المجتمعون إليه في خشوع، ولم يتجاسروا على مضايقته وهو يتكلم، ولو بحفيفِ الثياب. نظر داود إلى وجه أمِّه المجرّح بالخدوش، وتذكر كيف كانت تصرخ، وجسدها يرتجف من شدة البكاء.

تناول الناس الطعام بعد الدفن.

وارتدى آل تشكادوَا السوادَ لمدّة عام حِداداً على الميت.

لقد خيّم الرعب على لدزا وبقية القرى، وفي كل بيت أُرسِل أبناؤه إلى أفغانستان.

عرّج طوران على دار كاغْوَا. فهو لم يحضر الدفن. وأسرعت هيبلا لتحدّثه عن كل شيء، فاستقبلت أخاها قرب البوابة ومدّت يديها نحو، ولكنها استدركت في الحال:

- كلا، كلا! بعد البكاء على الميت لا يجوز العناق. ادخلْ هكذا!

لم يكن في صوتها ذلك الحزن. بل ومزحت، وضحكت. ودارت بينهما أحاديثُ كثيرة. فاستعرضا أخبار من جاء لوداع زاوور، وألقيَا باللائمة على من كانوا لا مبالين. وقد تكرر هذا كله مرات كثيرة: أمام غْفاج دجانتيم، أمام مارينا، وأمام آخرين ممّن يعرفونهم.

وفي ليلتين متواليتين رأى داود في منامه تلك العجائز اللاتي كنّ في ثياب الحداد، قصيراتِ القامة، ترتجف أرجلهنّ ويسندن رجالاً. وكنّ من دون عيون، تبدو خدودهنّ ضامرة بعمقٍ كما يحدث بعد مجاعة. كانت وجوههن مليئة بالقروح. وكان الصراخ والبكاء يتراميان من جميع الجهات.

يا له من ولدٍ كان! آي ياي، ياي، أيَّ ولدٍ كان! هادئ، ذكي، جميل. لم يتعدّ الثامنة عشرة من عمره... كيف حدث ذلك! - قالت الجدّة تينا بصوتٍ عالٍ. كان في صوتها ألمٌ، ولكنها في الحال سمحت لنفسها أن تصرخ مهدّدة: ميستان! من سمح لك بالدخول؟! هيّا! انقلعْ من المطبخ! انظر! يا بوز الجقل!

أطلق القط مواءه مستاء وانصرف مسرعاً.

- أيَّ ولد كان! - كرّرت الجدّة تينا ما كانت تقوله من كلام، وكانت صادقة في ما تقول.

ابتسم داود للدلفين الذي طفا على سطح الماء. لم يكن الآن خائفاً من الحديث معه أمام والده، ولم يخجل من مداعبته.

- هل تذكر زاوور؟ لعلّك تذكره، - - خاطبه داود.

- لماذا تقول له هذا الكلام؟ - قال فاليرا فجأة.

- لن يفهم؟..

- ليس هذا ما أقصده. فقد يكون مسروراً من دون هذا الكلام. لماذا تزيد فتفسد مزاجه.

صمت داود. لقد أذهلته كلمات والده. فقال أخيراً:

- الحق معك. لن أكلّمه. سأترك لحمزة أن يحدّثه حين يعود...

لقد تغيّر بِيْزو. وظهر في سلوكه قلقٌ وإحساس بالغربة. رأى صيادي السمك في الصباح فسبح قريباً منهم ما لا يزيد على عشر دقائق، ثم غاب. نادراً ما كان يُبدي نشاطاً. فيقفز عالياً أو يضرب الماء بذيله، أو يقذف نوافير، ويجري بين جهة وأخرى، ويحرّك الماء فيُزبد، ويسبح تحت القارب، وتصعد فقاعات من الأعماق. ثم يهدأ ويسبح في الجوار. وبعد أن يستريح يرحل على مهل.

ذات مرة في الصباح كان الدُلفين بمحاذاة الشاطئ. وإذا به يتوقف، وينتصب مثل عمود، كمنْ يبحث بنظره عن شيء ما في البيوت التي وراء الطريق.

لم يفرح بِيْزو لقدوم داود وفاليرا. وعندما ابتعدا في البحر عن الشاطئ ظلّ لامبالياً، ولم يلتفت إليهما حين نادياه. هكذا ظلّ بِيْزو يسبح قريباً من الشاطئ ثلاثة أيام، كان الصيادون خلالها يرونه هنا طول ساعات النهار.

- ماذا أصابك؟ - حاول داود أن يتكلم معه.

لكن الدُلفين كان يتقلّب في الماء ويسدّ فتحة تنفّسه أمام الأمواج السريعة. وكانت حركته فاترة. ولم يستجب لمداعبات داود على رأسه.

- ولكن لا يجوز أن تفعل هكذا، يا بِيْزو! ماذا أصابك؟

وربت الرجل على ظهر الدُلفين الدافئ، المشدود. وشعر داود بالعطف يسري في صدره، وبقلبه يتحوّل إلى كتلة شائكة تدفع الدموع إلى عينيه.

انسحب الدُلفين إلى المكان الذي وجده فيه الشقيقان كاغْوَا في شهر مايو، وقد خرج إلى الحصى، فكان الموج بصعوبة يبلل رأسه. كان يحرك أنفه ونادراً ما يلامس الصخور. وكانت عيناه صغيرتين على نحو غير عادي، وزعانفه ترتعش.

كان داود قريباً، ينظر من قاربه إلى بِيْزو ويتذكر كيف جاء حمزة راكضاً إلى البيت يناديه ليساعده، وكيف راحا يدفعان هذا الحيوان الفاقد الحياة إلى البحر.

- ما هذا! - قال داود.

ومسح الدمع عن عينيه وقفز إلى الماء البارد فغمره حتى خصرِه. راح يشتم وهو يضرب الموج بيده متوجِّهاً صوب الدُلفين:

- انهضْ! هيّا، ما لك استلقيت؟ انصرفْ من هنا! اذهب إلى حيث تشاء. لا حاجة لاستلقائك هنا، هل تسمع؟

عبس داود وخاف أن يبكي. فقبض على ذيل الدُلفين وراح يهزّه به، وفي الوقت نفسه ضربه بكفه المفتوحة على ظهره، فتطاير الماء. التفت إليه بِيْزو فاتحاً فمه، فتراجع داود مذعوراً ومتفاجئاً، ناسياً دموعه، وراح ينظر إلى الدُلفين متعجّباً.

- ولماذا فعلتَ هذا؟ أنا أدلُّك على الخير، وأنت...

راح الرجل بصعوبة يرفع رجليه في جزمته المليئة بالماء، وخرج إلى الشاطئ، وجلس. في الأسفل كان مسموعاً خرير سيول قصيرة صغيرة. تجمّع التعب في ظهره.

استلقى بِيْزو على الصخور بضع دقائق أخرى، ثم تقوّس وتدحرج إلى تحت، وغادر الخليج. خاف داود من أن يؤدّي ما جرى من خلافٍ إلى رحيل الدُلفين. غير أنه عاد في الصباح التالي واستقبل صيادي السمك من جديد، ورافقهم إلى شِباكهم، ثم طاف واختفى في الماء على مهل.

ابيضّتِ الجبال البعيدة بما جلبته الريح من ثلوج، وظلت الجبال القريبة خضراء، حرّة، ولكنها مشبّعة بتدرّجات اللون البنّي. كانت الشمس ساطعة على نحوٍ مخادع، فالحرارة لم يتغير ضغطها، وكانت الريح باردة أحياناً.

نضجت الأكِّدنيا في البساتين فبدت ثمارها على الأغصان صلبة وباهتة الحمرة، تحيط بها أوراق متطاولة. إلا أنها كانت ثماراً شديدة الحموضة هذا الشتاء.

صار وجه هيبلا شاحباً وكأنها كانت مريضة طول شهور الخريف. قليلاً ما كانت تضحك، وكان نومها سيئاً. وفي الليالي كانت ترتدي معطف فرو الغنم الخاص بِزوجها وتخرج تتمشّى على الشرفة.

يومَ ثالثِ خميسٍ في شهر يناير استعدَّت الجدّة تينا لعمل خير على نية السّلامة لحمزة. فاشتروا لهذه المناسبة خروفاً عاش في باحة البيت ثلاثة أيام، أحبّته خلالها عائلة كاغْوَا. كان الخروف يخاف القطط والكلاب، لذلك كان يسرع دائماً نحو الناس ويلتصق بأرجلهم، ويعرقل سيرهم من شدة خوفه. لم يعطوه اسماً، لكنهم كانوا لطفاء معه، يعلفونه جيداً، وكثيراً ما يداعبون الصوف المخَوتم على رأسه. وقد تطلّب شراؤه إنفاق معظم المبلغ الذي جمعوه للأيام الصعبة.

وفي اليوم الموعود، كانت الأحاديث العادية قصيرة، وبصوت خفيض.

ما إن أشرق الصبح حتى ذهبت الجدّة تينا حافية إلى الشارع، تنقل قدميها المجعّدتين ببطء على الأرض الباردة. ثم توقفت المرأة وفرشت قطعة قماش بيضاء وركعت فوقها على ركبتيها.
ووضعت إلى جانبها عشرة من أقراص العجين بالجبن وإسطوانات البارافين، ورفعت الجدّة تينا يديها نحو السماء وتكلّمت بصوت عالٍ، غير خائفة من أن يسمعها الجيران.

دعت أن يظل حمزة حيّاً، وألّا تصاب صحته بمكروه. وأن يحيد عنه الرصاص ولا تنفجر تحته الألغام. ونذرت الجدّة تينا أن تذبح خروفاً وتوزعه على الفقراء عندما يعود الفتى إلى أهله سالماً.

كررت الجدّة تينا دعاءها عدة مرات ثم نهضت وهي تئنّ من ألم ركبتيها المتعبتين، وعادت تعرِج إلى البيت. ولفّت المرأة إسطوانات البارافين في قطعة قماش وعلقتها على الشرفة. كان لمسها من أي أحد فيه علامة شؤم، فلا يجوز أن يلمسها أحد في غياب حمزة. وحين يعود كاغْوَا الصغير يصنعون من قطعة الشاش فتيلاً، ومن إسطوانات البارافين شمعة. يشكرون الله، ويذبحون خروفاً ثم يأخذون قلبه وكبده فيسلقونهما ويوزعونهما قطعاً. بعدئذ يوزعونهما قطعاً صغيرة على أفراد الأسرة، يضعون الخروف على الطاولة. كانوا يدعون الجيران لتناول الطعام، وإلى جانب الخروف يذبحون الدجاج، ويطبخون الأكلات الشعبية (خاتشابوري، لوبيو، كوتشماتش) أو الذرة الصفراء مع اللحوم المدخّنة.

عانقت هيبلا حَماتها بصمت وقبّلتها تعبيراً عن شكرها لها.

أحزن حمزة عائلته لطول المدة التي لم يكتب فيها رسالة لهم. وبرّر فاليرا تصرف ابنه بقوله إن الناس لا يفكرون بالرسائل وهم تحت الرصاص، مع أنه كان يدرك أن هذا الإهمال مُهين.

- هو يعرف أننا نتألم. ليته يكتب لنا سطرين فقط! - تعبِّر الجدّة تينا عن استيائها.

- لا، لا تقولي هذا الكلام، - تردّ عليها هيبلا. - قد يكون كتب، ولكن البريد بطيء. تعرفين أن هذا يحدث. بل وهو في وضع صعب. فقد خسر صديقه، مهما كان...

- نعم...

اطمأن بِيْزو وظل يسبح تحت القارب طوال مدة الصيد. كان فاليري قد تعلق بالدُلفين وبات يكلمه في بعض الأحيان. بل وذات مرة تقبّل حجج ابنه وداعب الدُلفين، وفرح بما فعل، ثم راح يتحدث عن ذلك طويلاً لهيبلا وهي تندب.

- أذكر، كانت هناك شجرة شوكولا في تكفارتشالا، - تقول الجدّة تينا.

- كيف هذا؟ - يتعجب ساشا دجانتيم.

- هكذا كانوا يسمّونها.

- هل يعني هذا أنها كانت تثمر شوكولا؟ - يبتسم طوران.

- لا، لم تكن تثمر شوكولا، بل ثماراً عديدة تشبه الشوكولا.

- وكانت مغلفة بالورق؟

- ومكتوب عليها السعر؟

- كانت حلوة الطعم! - لا تردّ الجدّة تينا على مزاح الضيوف. - أُو- و! كم كنا في طفولتنا نقطف منها! كانت ثمارها تشبه حبّات الكاراميل. تضعها على لسانك وتمصّها بسرور.

ينصت فاليرا إلى هذه الأحاديث بملل والنعاس يغالب عينيه. السماء خالية من الغيوم، والقمر أعمى ومنتفخ برطوبة فضية اللون. ألقى الرجل رأسه إلى الوراء. فثمة مجموعات كواكب لا يعرف أسماءها... ولسبب ما أطال فاليرا النظر، على وجه الخصوص، إلى خمس نجوم تجمّعت فوق الجبال الشمالية.

صباح السابع من فبراير لم يستقبل بِيْزو صيادي السمك. نشر كاغْوَا، الأب وابنه، شباكهما على مهل، ثم سبح فاليرا بعيداً، وظل داود وحده ناعساً، ولكنه لا يغفل عن مراقبة وضع القارب. ثم تثاءب وهو يلقي بصنارته في الماء. إلا أنه لم يكن محظوظاً، فلم يصطد ولو سمكة صغيرة.

على الشاطئ كان الصيادون مشغولين بأدوات الصيد. منهم من ينزل إلى الماء، ومَن ما يزال ينشر شِباكه. كان الجو هادئاً كما هو معهود في الشتاء، ولا كلاب هناك ولا أولاد.

نظر داود إلى الأمواج البعيدة، على أمل أن يبصر فيها زعنفة صاحبه. لكن الدُلفين لم يظهر.

وعندما تعب من صنارته عديمة الجدوى حرك داود مجدافيه ببطء ومضى بمحاذاة جروف الشاطئ.

لاحظ داود شيئاً يميل إلى السواد على الصخور المتناثرة في خط ضيق على الشاطئ. «وما هذا؟ إنه لا يشبه القارب» - خطر له، ولمس جبينه فوجده متعرقاً، وازدادت دقات قلبه.

توجّه الصياد داود صوب البقعة الغريبة الشكل مصراً على العمل بيديه. وحين لم تعد تفصله عنها إلا مسافة عشرين متراً، نهض. فارتجف، ثم أخذ يجدِّف بكل ما أوتيت يداه من قوة. كان الدُلفين مستلقياً هناك.

البحر صاخبٌ.

رذاذٌ بارد يتساقط على وجهه. أفق يصغُر. عليه أن يُكثِر من الالتفات فتألمت رقبته. وخشَّب التوتر يديه. فسقط المجداف الأيسر في الماء مرتين نتيجة عدم التحكم بإنزاله.

تنعق فوق رأسه طيور النورس. أنفاسه ثقيلة.

الوصول إلى الشاطئ هنا أمر صعب، فهو صخري، جرفيّ. اضطر لأن يشرئبَّ بيديه نحو الصخور المبللة. تأرجح القارب تحته وانحرف جانباً، وراح يرتطم بالنتواءات الصخرية. ولحق ضرر كبير بيده خلّف عليها خدوشاً عميقة. توتر، وبحركة حادة مدّ جسمه إلى الأمام وارتمى بصدره على قطعة صخر ناتئة. ثم جرّ ساقيه، وأخيراً صعد. تناول حبل القارب وربطه بصخرة رقيقة، وأسرع نحو الدُلفين. تراجع وصدم قصبة ساقه.

- هذا ليس هو. إنه دلفين آخر، - همس داود.

تجمد من الرعب. خاف أن يقترب أكثر.

- هه، هل أنت حيّ؟ - سأله بصوت خفيض وهو يلهث.

هناك ندوب. أجل، إنه بِيْزو. ذيله مثنيٌّ بشكل قبيح. جسمه مائل قليلاً. فمه مشقوق عن أسنانه الضئيلة الحجم وهي تتشبّث بالأحجار، ولسانه ظاهر. عيناه مفتوحتان أيضاً، ولسبب ما ثمة دم على الصخور. تفحّص داود بنظره كل التفاصيل وحفظها في ذاكرته.

- إيه، ماذا بك؟ قلت لك إنه ممنوع عليك الخروج. هذا فعل يؤذيك.... أحقاً... أحقاً، أنت لا تعرف؟ ماذا عليّ... كيف.. يا بِيْزو! - كان داود يتكلم بصوت خفيض، وعلى شفتيه تجمدت الدموع.

عصرت يداه قميصه. أصابه الزكام. مسح أنفه. ونادى عليه بصوت أقوى:

- بِيْزو! بِيْزو... ماذا أصابك؟

اقترب داود من الدُلفين، وبرفقٍ لمس زعنفته، ثم داعبها. كان جلده جافاً، دافئاً، مشدوداً كما هو عادة. ظلّ الدُلفين لا يتحرك.

- بِيْزو؟

جلس بالقرب منه، على نتوء صخرة بارد. تساقطت دموعه. ضغط على وجهه بيديه وتمايل ببطء. أحس بالضعف. وداهمته رغبة بالنوم. بألا يذهب إلى أي مكان. أن يبقى بجوار الدُلفين.

- لماذا فعلت هكذا؟

عبثت الريح بشعره. ثبّت داود نظره على صديقه الدُلفين. كانت أفكاره شديدة السرعة والغموض. ضجيج في رأسه ووميض. راح الرجل يتمايل ويئن بصوت خفيض. ثم نهض، لعله ما يزال حياً؟ ففي ذلك اليوم على الشاطئ بدا كما هو الآن... ميتاً، ولكن حمزة أعاده إلى الماء، فأنقذه!

دار داود حول الدُلفين. لمسه وتفحّصه. فكّر بأفضل طريقة لدفعه إلى البحر.

- ولكن كيف صعدتَ إلى هنا، قل لي؟ أكيد أنه ما من أحد رماكَ من مظلةٍ هوائية؟

«يجب أن أذهب لأطلب العون من أحدٍ ما. وحدي لا أستطيع القيام بالواجب. ولكن... كلا. من سيأتي معي. وسيكون الوقت متأخراً. يا للشيطان!».

ثبَّت داود قدميه على الصخور وشرع يدفع الدُلفين. كان جسمه الميت ثقيلاً جداً. أخذ الصياد يهزه ويضغط عليه بمزيد من القوة. زلت قدمه وسقط تحت خاصرة الدُلفين. وحين نهض رأى أنه تلوث بشيء ما أصفرَ ضاربٍ إلى الحمرة. وبغضب عاد يدفع الدُلفين من جديد، فأخذه من ذيله وبدأ يجرّه. ثم عاد إلى رأسه.

شتم وصرخ. أدار ظهره للصخر وراح يدفع الدُلفين بقدميه، فسقط فوق حجر حادّ. صرخ، وعاد إلى الدفع من جديد. واندسّت يده في شيء دَبقٍ، دافئٍ وكثيف. فارتجف حين شاهد مزيجاً فيه دم.

أخذه الغيظ فصرخ. وشرع يضرب جسم الدُلفين بقدمه. وانهال ضرباً على ندوبه. وبكى. ثم توقف عن دفع الدُلفين، ثم عن ضرب جسمه الذي لا حركة فيه. كان صدره ينقبض من البكاء، ويصعب عليه التنفس. واحتقنت عيناه بالدموع، فلم يعد يرى شيئاً.

سقط واصطدم بما حوله. مسح وجهه بيده، وشعر بطعمٍ كريه. داهمه الغثيان. ورغبة بالصراخ. كان يدرك، وهو ضعيف الوعي، أنه يمكن أن يسقط في البحر. تأرجح يميناً ويساراً وانتحى جانباً، سقط مرتين، وانشقت كفّاه.

قفز إلى القارب فتمايل تحته، وتسربت إليه موجة صغيرة. أراد أن يرحل عن هذا المكان أبعد، فأبعد.

أخذ الرجل المجدافين بيدين لزجتين، وبحذر أدخلهما في المفصلين المخصصين لهما وبدأ بالتجديف، فبكى وتذكر الحبل. لم يشأ أن يعود إلى تلك الصخور، لذلك قطعه بسكين. كان ذلك عملاً صعباً وطويلاً لأن الحبل المتين قاوم السكين. فحاول أن يفك العقدة، ولكن عبثاً. عاد من جديد ينشر الحبل بالسكين. سبّ، وارتجف. أسقط السكين من يده.

«ما هذا! فليأخذك الشيطان، أيها الوغد!». وجرّب من جديد أن يفكّ العقدة وراح يخلخلها يائساً. وعندئذ سقط الحبل المربوط بالصخرة.

أخيراً رحل.

بعد ذلك، هدأت أنفاسه واغتسل. وجمع الشِباك. لم يكن فيها سمك تقريباً. فعاد إلى البيت.

- ما لكَ عدت باكراً؟ - تعجّبت الجدّة تينا.

خرجت هيبلا من المطبخ إلى الشرفة. وحين رأت ابنها شاحباً، كأنه مريض، شرعت تنشّف يديها بمئزرها، وسألته بهدوء:

- ماذا حدث؟

تقدم داود نحو الطاولة وجلس. هزّ رأسه يميناً ويساراً، ثم قطّب وأجاب:

- بِيْزو مات.

- بِيْزو؟

تنهّدت هيبلا.

- إياك أن تخيفنا هكذا! لقد دخلتَ وكأن مصيبة وقعت حقاً.

نظر داود إلى أمّه بعينين تعبتين.

- كيف حدث له ذلك؟ هل أطلق عليه النارَ أحد؟

- ألقى بنفسه على الصخور..

- هكذا... ربما هذا أفضل. فهو منذ تلك المرة أراد أن يموت. عبثاً أنقذه حمزة. الآن على الأقل حين يعود سينشغل بما يفيد. بل وطوران أيضاً...

لم يكمل داود الاستماع إلى هيبلا فنهض عن الكرسي، وعاد إلى البيت ودخل غرفته وقفل الباب وراءه.

على طول الدرب الضيق الذي يؤدي إلى الحمّام كانت شجيرات الميموزا المخملية الزهرية اللون قد أزهرت.

- لا تكتب عما حدث لحمزة، - قالت الجدّة تينا في المساء.

- الجدّة على حق، - أومأ فاليرا. - يكفيه الآن ما عنده من منغِّصات.

- حين يأتي سنحدّثه عن كل شيء. لعل فرحة العودة تهوّن عليه الألم.

- هذا يعني، - أجاب داود، - أنه يجب أن أكذب عليه؟ هو سيسألني عن... بِيْزو، وأنا سأحدثه كيف أُطعِمه، كيف أسبح معه، وكيف يقفز. هذا كذب. كيف لي بعد ذلك أن أنظر في عينَي أخي؟

- من أجل طمأنينته يجوز الكذب، - بحزمٍ ختمت الجدّة تينا.

- افعلوا كما تريدون. لن أكتب له عن موت بِيْزو، ولكني أيضاً لن أكذب وأكتب له أنه على ما يرام!

- يجب أن تخبر حمزة أن الدُلفين ضاع. فهو نفسه قال إنه قد يرحل إلى مكان مجهول، - قالت هيبلا.

- هذا أفضل حلّ، - وافق فاليرا.

- حسناً، سأكتب له إنه رحل...

- أضفْ فقط، إن الدُلفين سيرجع حتماً!

أومأ داود موافقاً. أكمل شرب قهوته واتجه صوب البوابة.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- سأتمشّى.

بات العجوز أهرا أبيدَجْ يكثر من التدخين على الشاطئ، ويسرّح نظره بعيداً. وكان بطل، المتعجب من سلوك أبيه، مجبراً على أن يدعوه في المساء للعودة إلى البيت.

ألِف باسيا وميستان الجدّة تينا. فقد كانت هي وهيبلا تداعبانهما، وتهمسان لهما بكلام طيب.

لاحظ داود أن فيليكس يمرّ قرب البوابة، وأنه مرّ أمامه عدة مرات، وأخيراً توقَّف، وها هو الآن يقف وينظر بضجر إلى الأرض. كان في سلوكه شيء غريب. فتوجَّه داود صوب تصوغبا ليتكلم معه.

- مرحباً يا فيليكس.

- مرحباً.

- ماذا تريد هنا؟ هل حدث شيء؟

مسح فيليكس أنفه، وحك خدّه:

-جاءني هنا... أعني...

توجّس داود. ثم تنهّد تصوغبا وقال فوراً:

- هذه. أعطاني زوراب أوتاروفتش...

أخرج فيليكس من جيبه ورقة مطوية. كان داود يعرف شكل هذه الورقة، فترنّح.

- لماذا هذه؟

- خذْها.

وضع فيليكس التبليغ على صدر داود. لكن كاغْوَا تراجع وسقطت الورقة على الأرض.

- انصرفْ أنت وأوراقك! أعطوك هذه، فاقرأها أنت.

- ما هذا؟ ما علاقتي؟

التقط فيليكس الورقة، وناولها لداود من جديد. هزّ داود رأسه رافضاً. وشعر بدبيب رعشة في جسده. بات الهواء كثيفاً مثل الماء، كأن كلَّ شيء قد غرق في البحر. هذه الأشجار، وهذه الأيدي.

- سامحْني، - همس تصوغبا.

- هيّا، انصرف. لا تتسكعٌ هنا. - قال داود بغضب، لكنْ بهمس.

- سامحْني.

- لستُ بحاجة إليها! هيّا، هيّا هل تريد أن نتخاصم؟ آ؟ لقد أضجرتني. هيّا انصرفْ!

- اقرأْها...

كان الضباب كثيفاً، متحرِّكاً. حدّق داود بالورقة في يديه.

وابتعد فيليكس مسرعاً.

- لقد ضجرت من هذا كله. وماذا بعد...

التفت. كانت هيبلا قد خرجت من البيت، وهي الآن تنظر إلى ابنها.

حلّت اللامبالاة محلَّ التوتّر. كان يمكن لداود أن يظنَّ ذلك حلُماً، ولكنه كان يعرف أنه يقظة. أنه حقيقة لا يستطيع أن ينكرها. إنها أقوى منه.

فتح الورقة. مرّر أصابعه الذابلة على الحروف المطبوعة طباعةً سيّـئة. «أرجو تبليغ... أن

حمزة فاليريفتش كاغْوَا

المخلص للقسَم العسكري...

الذي أبدى بطولة وشجاعة...

قد مات...

7 فبراير 1981»

حلُمٌ هادئ. عينان حمراوان. في الفم لُعاب جافٌ، مزعج. رغبةٌ بالبصاق، ولكن لا قدرة على ذلك. كان العالمُ شائكاً وقطنياً في الوقت نفسه.

«كيف حدث هذا...»

جسدُه باردٌ، عرَقٌ على الجبين.

«السابع من... لكن هذا... كيف حدث؟ ما هذا؟»

هزّ داود رأسه. تحرّكت يداه. جالت عيناه... لم يستطع أن يستدير. كان يعرف أن أمّه وراءه. ترنّح. مسح جبينه، وشَعره.

«كيف حدث هذا؟ حمزة... ولكن، يا بِيْزو... هل حقاً كنت تعرف؟ إنّما كيف؟».

وقف فاغراً فمه.

«يعني، كان قد مات ونحن هنا نتخاصم... يا إلهي...»

كانت أنفاسه متقطِّعة ولكنها قوية. «كيف، يا بِيْزو...».

فكّ قبّة قميصه، تحجرت قدماه، وتقلّصت روحه مثل هواءٍ مُرّ. التفتَ. نظر إلى هيبلا. شعَر بالدموع تحرق خديه. اصفرّ وجهه، وخارت قواه، وصوت طنينٍ يغوص في أذنيه. لقد فهمتْ أمُّه كلَّ شيء. سقطت الورقة على الأرض.

هزّ داود رأسه وهمس!

- بِيْزو... كيف... حمزة...

***



# خاتمة المؤلف

قبل عدة سنوات قمت بجولة في أبخازيا، فذهبت إلى قريةٍ جبلية صغيرة هي بْسْخو المحتجبة عن عواء الجقلان. هناك صعدت إلى جبل تْشْخا، أحمل حقيبة ظهر وعصا، وتجوّلت في وادي نْظيبْ، وحين هبطتُ إلى البحر وجدت نفسي في قرية لدْزا، حيث علمت من أحد المسنين بقصةٍ عجيبة عن صداقة جمعت بين فتى أبخازي ودلفين في البحر الأسود، هي قصة حمزة وبِيْزو.

لم يبق أحد من عائلة كاغْوَا في لدْزا. فداود، الأخُ الأكبر لحمزة، هرب أيام الحرب الجورجية الأبخازية بصحبة زوجته وولدَيه إلى تركيا، حيث يعيش حتى الآن. كما أخذ معه أمَّه هيبلا التي حرمها المرض تقريباً من القدرة على المشي. ومات والده فاليرا خلال الحرب. أمّا الجدّة تينا فقد ماتت قبل ذلك، بعد ثمانية أشهر من مقتل حمزة.

قررت أن أدوِّن قصة بِيْزو وحمزة، فطلبتُ من الرجل العجوز أن يزوّدني بأكبر قدْر من التفاصيل. فقد سبق لي أن سمعت عن قصص مشابهة. وقديماً كتب المؤرخون الإغريق والرومان عن الدلافين. وكان الدُلفين بطلاً إيجابياً في تلك الحكايات دائماً.

يقول هيرودوت إن الدلافين هي التي أنقذت الفتى تيليماخ بن أوديسي. وساعدت الدلافين بوسيدون على العثور في قاع البحر على حبيبته أمفتريت (ويومها بالذات قام إلهُ البحر بوسيدون بإشعال مجموعة نجوم في السماء هي نجوم الدُلفين).

يمكن أن ننسب هذه الحوادث إلى الأساطير، إلا أننا نعرف حوادث أخرى تقوم على أساس وقائع حقيقية في التاريخ. فالدلافين في تلك العصور كانت أكثر عدداً، وكانت تخاف الاقتراب من الشاطئ. وقد تعجّب الإغريق ثم الرومان من كون هذا الحيوان المفترس القوي لم يهاجم الإنسان في يوم من الأيام، وظل صديقاً له دائماً. فحتى الكلاب تتميز أحياناً بصفة مشابهة.

لقد كتب بليني[15] أن صبيّاً، كان يعيش بالقرب من نابولي، تصادق مع دلفين. كان الصبي ساكناً على شاطئ بحيرة يصلها بالبحر مضيق مائي. وفي تلك البحيرة التقى بالدُلفين أوّل مرة. ومنذ ذلك الحين كانا كثيراً ما يلعبان معاً. ومع مرور الزمن تعلّم الصبي السباحة على ظهر الدُلفين كل صباح حتى المدرسة. واستمرت صداقتهما عدة سنوات، إلا أن الصبي مرض ذات مرة ومات. ويشهد بليني على أن ذلك الدُلفين لم يتحمّل ألمَ الفراق، فأخذ يأتي إلى المكان الذي كان يلتقي فيه مع صديقه، ثم مات أيضاً. ربّما نتيجة الهزال وفقدان الوزن.

هذه الحوادث في روما القديمة واليونان القديمة وثيقةُ الصلة بقصة حمزة، لأن أبخازيا كانت مستعمرة إغريقية في غابر الزمان. هذه الأمثلة معروفة ليس في أوروبا فقط، بل وأيضاً في بولينيزيا، ونيوزيلاندا، وإفريقيا وأجزاء أخرى من العالم.

كان الإغريق القدماء يتعجّبون، مثلَ عائلة كاغْوَا، من قوة صداقة هذا الحيوان البحري المفترس مع الإنسان (طوله يصل إلى ثلاثة أمتار، وزنُه 300 كيلو غرام، وله نحو خمسين من الأسنان الحادة). كان الإغريق يَعْزون ذلك إلى وجود صلات قُربى بعيدة بين الإنسان والدُلفين. وهذه القربى ليست بالطبع أكثر من صورة أدبية، إلا أن العلماء يقولون إنه قبل 250 مليون سنة غادرت الدلافين في مسيرة تطورها مياه المحيط وتأقلمت مع الحياة على اليابسة. من العسير الآن أن نتصور أن الدلافين كانت تتمشّى في الغابات، وتتسلّق الجبال، إلا أن هذا كان في الأزمنة السحيقة، وكانت بنية أجسامها مختلفة تماماً عمّا هي عليه اليوم. ومهما كان الأمر، فإن اليابسة لم تعجب الدلافين. فالعيش عليها لم يكن سهلاً، لأنها وجدت نفسها محاطة بعدد كبير من الحيوانات المفترسة، ما جعلها تعود إلى الماء من جديد. فتعلَّمت السباحة مرة أخرى ولم تعُد تتذكر اليابسة الحارّة.

في ذلك الوقت لم يكن قد بقي في البحار حيوانات مفترسة ضخمة. فعدوُّها الوحيد سمكُ القرش لم يكن خطيراً عليها لأنه كان أضعف منها وأكثر غباء. كل هذا كان قبل 50 مليون عام. وخلال هذا الزمن كانت الدلافين قد نسيَت كيف تكتسب القسوة. لم يكن عندها ما تدافع عنه وتقاتل من أجله.

وعلى الرغم من ذلك كان الصيادون يحبّون لحمها، ويتاجرون بجلودها، أما العلماء فكانوا يقتلون قادة الدلافين ليرصدوا بعد ذلك سلوك باقي السِّرب. ففي سيفاستوبول الروسية كانوا يحشرون دلافين البحر الأسوَد عمْداً في المياه الملوّثة بالنفط، ويحقنونها بمؤثرات على الدماغ. إن حديث فاليرا عن آلافٍ من الدلافين التي ماتت على شاطئ نوفوروسيسك تحت الشمس الحامية، أصاب حمزة بالذهول. غير أن هذه، للأسف، لم تكن الواقعة الوحيدة.

كان هذا النوع من التعامل مع الدلافين سائداً في العالم كله، وليس فقط على شواطئ البحر الأسود. فالجنود الأمريكيون استخدموا الحيتان في تدريباتهم على مواجهة الهجوم على الغواصات. فكانوا يطلقون النيران على الحيتان والدلافين من منصّات الصواريخ، ويلقون عليها القنابل لغاية واحدة هي اختبار سلاح جديد وتدريبُ الجنود على دقة إصابة هدف متحرك.

لقد سُجِّلت الدلافين في الكتاب الأحمر العالمي بوصفها نوعاً مهدَّداً بالانقراض. ويمكننا حتى الآن أن نرى أسراب الدلافين ونحن على شواطئ أبخازيا، إلا أنها لا تقترب من البشر إلا نادراً. لقد تعلَّمتْ أن تخاف.

كنت مهتماً بالدلافين قبل أن أسمع قصة بِيْزو وحمزة بوقت طويل. في تلك السنوات كنت أشتغل مروِّضاً، وأدرُس الحيتان زعنفيةَ الأقدام. وقد اشتركتُ مع جامعة موسكو الحكومية في دراسة النشاط العقلي البسيط لدى الدلافين والحيتان زعنفيةِ الأقدام، أو ببساطة أكبر: كنا نحاول أن نفهم من هو الأكثر ذكاء بينها. وبعد بعض الوقت تعرّفت في سيفاستوبول إلى دلفيني الأوّل الذي استغلَّ فوراً انعدام خبرتي. فعندما لبّى ما طلبته منه وألقيتُ إليه بسمكة، تظاهر بأنه لا يراها. فأشفقت عليه وألقيت إليه بسمكة ثانية فتركها تغرق أيضاً من دون أن يمسّها، وأفهمني الدُلفين أنه مستاء، ففتح فمه وأطلق «أ- ا- ا!» وهو يتظاهر شاكياً بأنه ضعيف النظر. وقبل أن أفهم ما يجري كنت قد

أسقطت له في الماء ما لا يقلّ عن ستِّ سمكات كبيرة. وفي الحال سألته غاضباً إن كان يخدعني، فهزّ ذيله فرحاً وغاص حتى القاع والتَهمَ كل ما استطاع أن يحصل عليه منّي.

لم يكن ذلك لهواً بالنسبة له. فالدلافين كائنات انفعالية ومرِحة تشبه في سلوكها الأطفالَ الأذكياء والكثيري الحركة.

فلا عجب أن تنمو صداقة بين دلفين ومراهق أمثال حمزة وسلفه الصبيّ في نابلولي. فقد أمضى كل فتى وقتاً طويلاً مع صديقه الدُلفين، يلهوان ويتراشقان الماء في البحر.وعندما يحرد الدُلفين يكون كالطفل. فمثلاً عندما يغضب من مدّربه. يتنحى جانباً وقد يعضّ دلفيناً آخر. مثلنا تماماً، فما أكثر ما نفشّ غِلّنا فيمن لا ذنب له من رفاقنا، وعندما نغضب نكشر عن أسناننا!. هذا ما يسمّى في علم النفس بإعادة توجيه الميول العدوانية، وهو ليس الشبَه الوحيد بيننا وبين الدلافين.

لقد اعترفت لنفسي مراراً، وأنا أراقب الدلافين، أنني أحياناً أحسدها. ليس فقط لأنها تستطيع أن تسبح بحرّية عبر أمواج البحر، ولا لأنها لا تأكل إطلاقاً إلا السمك الطري. بل لأن الدلافين لا تنام أبداً. هذه المهارة هي ما كانت تبدو لي مُغرية. ولمزيد من الدقة، فإن الدلافين لا تنام أبداً نوماً كاملاً. أعرف أن في قولي هذا شيئاً من الغرابة. إلا أن جمال تطور الارتقاء يكمن كله في هذه المقدرة.

الحقيقة هي أن الدلافين من الثدييات، لها رئة، وليس خياشيم مثل الأسماك (سمكة القرش على سبيل المثال، على الرغم من كبر حجمها تظل مجرد سمكة). تَحبِس الدلافين أنفاسها ما بين 10 و15 دقيقة، ولكنّ هذا لا يكفي. فهي مضطرة للصعود إلى سطح الماء لكي تتنفَّس. ولهذا لا تستطيع أن تنام كما ينبغي، وإلا اختنقت وهي نائمة. كان يُعتقد خلال أزمنة طويلة أن الدلافين لا تحتاج إلى النوم. إلا أن العلماء في سبعينيات القرن الماضي أثبتوا أن الدلافين تنام بالتناوب، تارة بالنصف الأيسر من الدماغ، وتارة بنصفه الأيمن. أي أنها تجمع بين النوم واليقظة في وقت واحد. إنها تستطيع السباحة وهي نائمة من غير أن تخسر الساعات الثمينة من النسيان الكامل. إنها المقدِرة النفيسة التي أعتقد أن الإنسان بحاجة ماسّة إليها.

وعلى الرغم من تأكيدات العلماء، تبدو هذه المقدرة خيالية وغير حقيقية. ولكننا نعرف أنّ في الطبيعة طرقاً أخرى للنوم ليست أقلّ إثارة للاهتمام. فطيور اللقلُق، مثلاً، تنام وهي تطير. فعندما يتعب اللقلق ينتقل إلى مكان قريب من وسط السرب، فيغمض عينيه وينام مدة تصل إلى عشر دقائق من غير أن يقلِّل من سرعته أو ارتفاعه. وبعدئذٍ يتخلّى عن مكانه في الوسط للقلُقٍ آخر يرغب بأن ينال قسطاً من النوم.

كان حمزة يتعجب من أن بِيْزو يسبح تحت الماء ثم يطفو من غير أن يُحدِث أي تموجات على السطح، ويظل الماء هادئاً. لكن هذه أيضاً واحدة من المهارات التي يصنعها التطور. والحقيقة هي أن بنية الجسم والغطاء الجلدي عند الدُلفين شيئان فريدان من نوعهما، يتيحان للدلفين أن يسبح بأقلِّ قدْر من الجهد، ومن غير أن يحرِّك الماء تقريباً. ويمكن أن تبلغ سرعة الدُلفين 20 كيلومتراً في الساعة، ولكن هذا ليس الحد الأقصى لسرعته. فهو يحسِن السباحة «على الأمواج». فالدلافين

تستطيع بالمعنى الحرفي للكلمة أن تركب الأمواج أمام السفينة وتسبح بسرعة تصل إلى 60 كيلومتراً في الساعة من دون أي جهد تقريباً.

إن عدد هذه القدرات ليس قليلاً عند الدُلفين، ولكنها ليست مدروسة كلّها، وما يزال علينا أن نعرف الكثير عن حياة هذه الدلافين ونشأتها. وآملُ أن يتحقق لنا ذلك بطرق أكثرَ إنسانيةً، ومن دون عنف. وآمل أيضاً ألا يقوم العلماء الآن، وهم يدرسون العلاقات بين الدلافين في السرب، بقتل قادتها، وإنما بدلاً من ذلك أن يراقبوا القائد مع مرؤوسيه في البحر من دون أن يسبِّبوا له ألماً، ومن دون أن يحشروا الدلافين في أحواض ضيقة، أي أن يعرفوا سلوكها الطبيعي الصِّرف الذي لا تشوبُه شائبة.

يظل السؤال الأساسي ثابتاً: «ما الذي نسمح به لأنفسنا في موقفنا من الضعفاء، بصرف النظر عمّا إذا كانوا دلافين أو بشراً؟» إنه لسهلٌ علينا أن نحبَّ القويّ. لكنّ حبّ الخير الحقيقي هو أن نهتمّ بمن هم أضعف منه.

إن ارتقاء الدلافين الذي أتاح لها أن تنسى الظلم، قد منحَنا، نحن البشر، الأمل بأن نتغيّر. فمنذ أن اخترع الإنسان البارود والبنسلين والترانزيستر، لم يعد بحاجة لأن يكون ظالماً. ليس عندنا من ننافسه، ولا مَن ندافع عن أنفسنا منه. لقد انتهت منذ زمنٍ حربُنا مع الطبيعة من أجل البقاء. ومع ذلك، فإننا بحكم قوة الدفع لغرائزنا المكتسَبة، ما نزال مستمرين بالقتل. لقد ارتدى الناس البدلات، وقصّروا الشّعر والأظفار، وتعلموا الشفقة، إلا أنهم مازالوا متوحّشين.

إن الدلافين، أنموذجاً، ترغمنا على الإيمان بأن الحروب الشبيهة بالحرب الأفغانية وبالحرب الجورجية الأبخازية سوف تنتهي ذات يوم وتصبح جزءاً من ماضٍ بعيد... ربما يأتي اليوم الذي يبدو فيه غريباً ومستهجَناً أنّ البشر كانوا في وقت من الأوقات يقتلون بعضهم بعضاً. سوف ننسى الحروب ولن نكون ظالمين قساة. وآمل فقط أننا لن نضطر، مثل الدلافين، لانتظار ذلك ملايينَ طويلةً من السنين. عندئذ ستكون الصداقة مع الدُلفين ظاهرة طبيعية، حتماً، مثلما هي الصداقة مع الكلب في أيامنا هذه.

***

1. عبارة لاتينية غير تقليدية، اعتاد الكاتب أن يضعها في مستهل كتبه وتعني «زاوية في كتاب». ↑

2. فاضل عبد الله إسكندر (1929-2016) أديب أبخازي بارز، والده إيراني طُرِد من الاتحاد السوفييتي عام 1938 ولم يرَه بعد ذلك أبداً. اشتغل فاضل في الصحافة، وبدأ بنشر أعماله الأدبية عام 1957. من أشهر أعماله روايته النقدية الساخرة «برج التيس النغل»

(1966). علتْ نبرته النقدية فضيّقت الرقابة عليه الخناق عام 1989. يعدّ من كلاسيكيي الأدب الروسي. - م. ↑

3. نوع من الملفوف (الكرنب) مشهور في أبخازيا. - م. ↑

4. أوّل حرفين من كلمات: مصنع الحيوانات البحرية. - م. ↑

5. وضعت الثورة الروسية (1917) يدها على ملكية كل شيء في الدولة. فجرّدت جميع المواطنين من حقوق الملكية الخاصة، وأوجدت شكلين لتنظيم الحياة الزراعية والعاملين فيها: 1) الكولخوز (kolkhoz) أي الاقتصاد الجماعي، وهو تجميع مساحات واسعة من الأراضي يشتغل فيها ملاكها السابقون والعمال على قدَم المساواة، فيتقاضون رواتب شهرية محددة مقابل أيام عمل محددة، وشكلياً هم من يختارون رئيساً لهم. 2) السوفخوز (sovkhoz)، أي الاقتصاد السوفييتي، وهو تجميع مساحات واسعة من الأراضي تعيّن الدولة إدارته، وتمدّه بوسائل الإنتاج، ويتقاضى العاملون فيه رواتب شهرية. - م. ↑

6. الجَقَل نوعٌ من الثعالب يعرف باسم ابن آوى أيضاً. - م.. ↑

7. هكذا في النص، بمعنى تعال إلى هنا (تعبير شبيه بـ «تعال جاي» في بعض اللهجات العربية). - م. ↑

8. ساصْريكفا. بطل أسطوري عند شعوب شمال القوقاز، يرجّح أن تاريخه يعود إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. - م. ↑

9. القَرِقة هي الدجاجة التي تَقرِق وهي تحضن البيض أو تربّى صيصانها. - م.. ↑

10. نوعٌ من التوابل الحارّة العطِرة. - م.. ↑

11. ما يبقى ظاهراً من جذع الشجرة بعد قطعها. - م. ↑

12. شراب يصنع من حليب حامض، يؤخذ من البقر أو الماعز أو الجواميس. - م. ↑

13. أبناء آوى، ـ مكتوبة هكذا بلفظها العربيّ. - م. ↑

14. تسمى هذه الرقصة الشعبية الحربية (أشاتسخيرتورا)، في شمال القوقاز، وتمثّل رقصة المنتصر. - م. ↑

15. المؤرخ روماني عاش في القرن الأول الميلادي. - م ↑

# Table of Contents


مرحباً، أخي بِيْزو!
مرحباً، أخي بِيْزو!
الفهرس
In angello cum libello[1]
كتاب الوفاق
الفصل الأول الربيع
الفصل الثاني الصيف
الفصل الثالث الخريف
الفصل الرابع الشتاء
خاتمة المؤلف